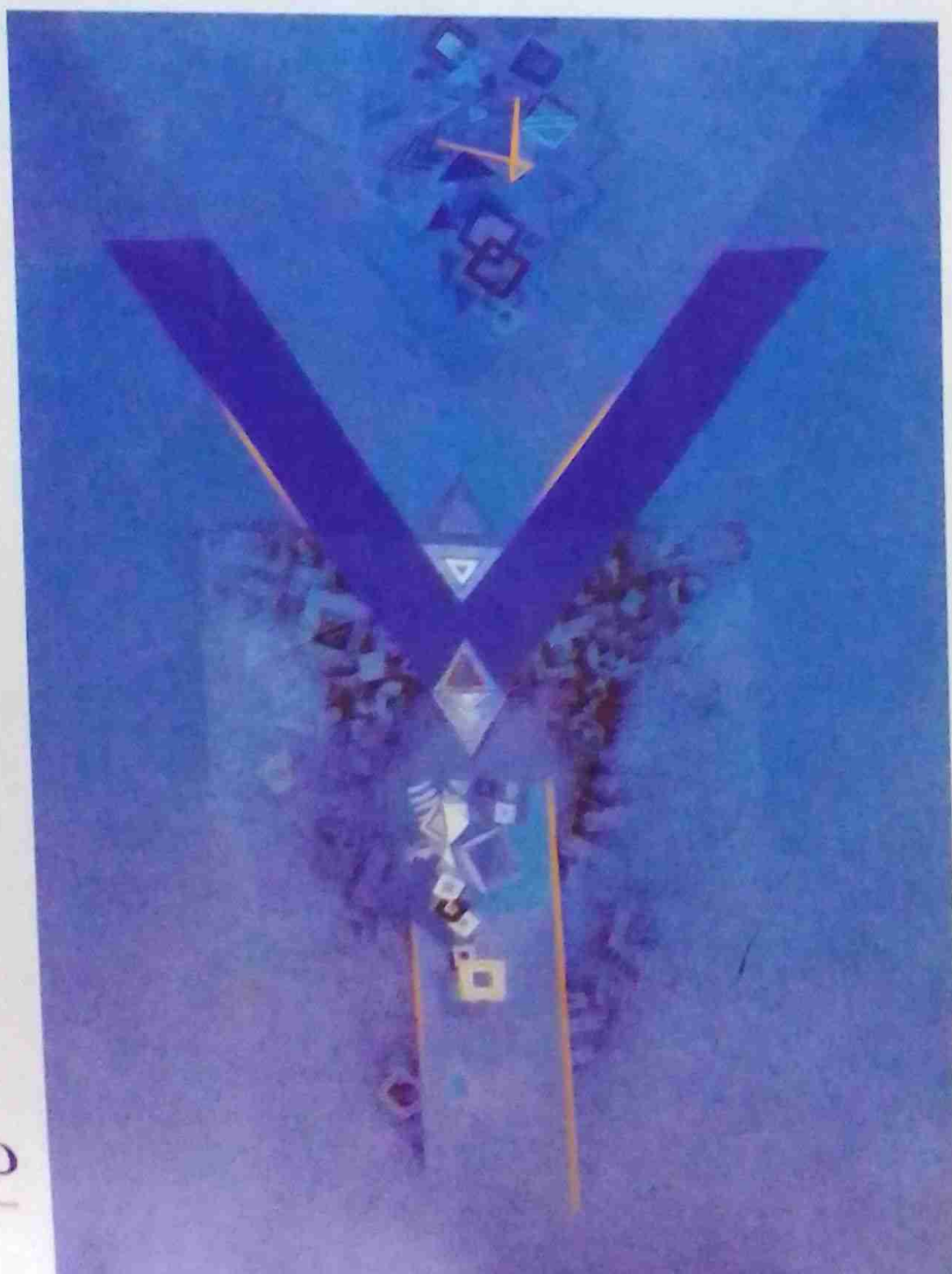


د. صلاح فضل

فني النقد الأدبي



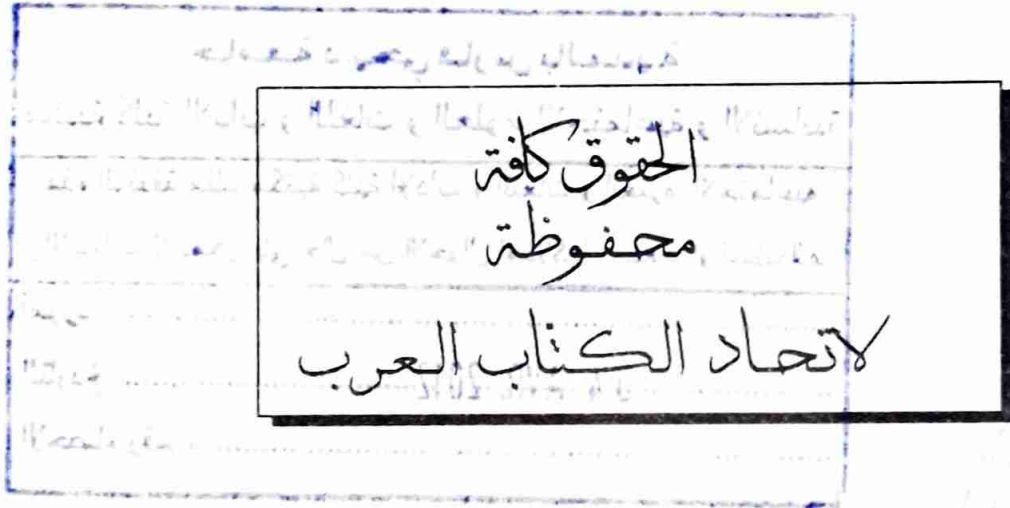


10064

جامعة دهلي فارس بالمدينة	
مكتبة كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الانسانية	
هذه الوثيقة ملك مكتبة كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الانسانية لا يمكن باي حال من الاحوال امتلاكها يبعها او استبدالها	
اطور
التاريخ	04 AVR. 2012
الإحصاء رقم	10064



في النقد الأدبي



البريد الإلكتروني: E-mailnet.sy@unecri

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

الإخراج: سنديا عثمان



د. صلاح فضل

في النقد الأدبي

مكتبة د. يحيى فارس بالمدينة	
المكتبة المركزية	
هذه الوثيقة ملك جامعة المدينة	
لا يمكن نقلها من الحاسوب إلا بالترخيص أو استبدالها	
المورد	Info doc
التاريخ	28 سبتمبر 2009
رقم الإحصاء	112941

دراسة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - 2007



هذا الكتاب

يتألف هذا الكتاب من عدد من المحاضرات التي أقيمت على طلاب الدراسات العليا بمعهد البحوث والدراسات العربية عن مناهج النقد المعاصر، والمحاضرات بطبيعتها تميل إلى الشرح والتبسيط والتقاط ما هو جوهري في الفكرة على ما يترأى للمتحدث وإفهامه للمستمعين بأيسر السبل، دون تدقيق في المصادر أو تأنيق في العرض، تجري على اللسان بتدقيق وتلقائية طبقاً لمقتضيات التواصل وما يبدو في عيون المخاطبين من فضول أو شغف أو ملل، وطبقاً لما يرد في خاطر المتحدث في تلك اللحظة على وجه التحديد، ومن ثم فإن العفوية تمثل سمتها الأساسية، وقد أردت أن أحتفظ لهذه المحاضرات بطابعها الشفاهي فلم أتدخل لإعادة صياغتها وتنظيمها بالطريقة الأكاديمية في توثيق النقول وتدقيق المرجعيات، حتى استأنف بها نوعاً من الخطاب النقدي الذي طالما استمتع به القراء العرب فيما كان يمليه طه حسين ومحمد مندور على وجه الخصوص، إذ إنني أدركت أن سر سيولة كلامهما يعتمد على طريقة إنتاجه عبر الإملاء الشفوي، ولا أزعم أنني أطمح إلى مجاراتهما في سحر الكلام وإيقاعاته الصوتية والدلالية، ولكن حسبي أن تتسع مساحة قراء هذه الصفحات لتجاوز دائرة المتخصصين وتمريرها لعامة المشتغلين بالأدب والثقافة خاصة من الشباب، لتعريفهم بمظاهر هذا الانفجار النقدي العظيم الذي جعل النصف الثاني من القرن العشرين عصر النقد الذهبي بحق، وقد اقتصررت في استخدام المصطلحات التي طالما كانت تمثل العائق الأساسي في التلقي للنقد الحدائثي على قدر الضرورة، مؤثراً شرح الفكرة بأبسط وأقرب العبارات، كما اقتصررت في الإشارة إلى المراجع على ما يتوفر للقارئ العربي عقب كل فصل أو محاضرة، واستهدفت في الجملة إلى وضع خارطة كلية للمشهد النقدي في الثقافة العربية والعالمية، متفادياً التفاصيل الجزئية والإشكالات المعرفية الدقيقة، خاصة تفصيل ما يتصل بطبيعة موقف النقد العربي من هذه المناهج وقصة تلقيه لها وإضافته إليها لأن ذلك يدخل في سياق التاريخ للحركة النقدية

العربية مما أشير إليه بإيجاز في نهاية هذه الصفحات. ومن الطبيعي أن تكون الصورة المقدمة هنا عامة بقدر الإمكان ومحكومة بمنظور محدد يتم فيه التركيز على الجوانب الفكرية والتقنية ويكتفي بالإشارة الخاطفة لمجمل القضايا المثارة.

وفي تقديري أن وظيفة النقد المعاصر في مجتمعاتنا العربية تمضي في نفس الاتجاه الذي بدأت به عند الرواد، باعتباره عملاً تنقيفياً تنويرياً يهدف إلى إشاعة الروح النقدي في مختلف مستويات الفكر والممارسة الاجتماعية؛ لأن دينامية التطور تركز على تشغيل الموقف النقدي بأقصى طاقته في مجالات السياسة والاجتماع والثقافة، وتضيف إليه توجهاً جديداً هو الذي يميز نقد الآونة الأخيرة وهو تحديد مفهوم وطبيعة توجهه العلمي بشكل يخالف ما كان عليه حال العلم الإنساني من قبل، فقد خرج من دائرة الفروض الأيديولوجية الضخمة في نظرياته وإجراءاته ليلتمس مدخلاً صحيحاً للعملية المتنامية المترامية، متسقاً في ذلك مع منظومة العلوم الإنسانية في حركتها المتواصلة لتعديل استراتيجيتها كي تتوافق مع التطور المحدث، وكما أصبح النقد علمياً وتخلص بقدر الإمكان من الفروض الأيديولوجية واتجه إلى المستقبل كان أكثر علمية وتواصلت مع الفكر الإنساني، وأكثر عوناً لنا في الآن ذاته على اكتشاف خصوصيتنا في هذا العصر واختلافها عما كانت عليه في العصور الماضية؛ وحسب هذه الصفحات أن تكون دليلاً للقارئ كي يمضي في تعميق معارفه وضبط توجهه نحو هذا الأفق المستقبلي دون شعور بالغرابة أو التهميش، لأن حركة الحياة من حولنا تمضي على هذا النحو بالرغم من كل التوترات والتقلصات، وثقافتنا العربية جديرة بأن تحتل موقعها في إنتاج المعرفة المعاصرة بالدخول في قلبها والإضافة إليها.

وقد رأيت أن أضيف إلى هذه المحاضرات مقالاً مركزاً على أبرز إنجازات النقد العربي في القرن العشرين في ضوء هذه المرتكزات الأولى، حتى يكتمل المشهد المنهجي والواقعي معاً في خطاطة وجيزة.

والله الموفق

دكتور صلاح فضل

مفهوم المنهج

نلاحظ في البداية أن جميع التعريفات التي تحاول الإمام بهذا المفهوم تقصر عن الإحاطة بجوانبه، لأن الوجه اللغوي في التعريف لا يفي بتغطية الشروط الاصطلاحية. فتعريف المنهج لغوياً، هو الطريق والسبيل والوسيلة التي يتدرج بها للوصول إلى هدف معين.

أما تعريفه اصطلاحاً فقد ارتبط بأحد تيارين:

الأول: ارتباطه بالمنطق، وهذا الارتباط جعله يدل على الوسائل والإجراءات العقلية طبقاً للحدود المنطقية التي تؤدي إلى نتائج معينة. لذلك فإن كلمة منهج انطلقت من اليونانية واستمرت في الثقافة الإسلامية، لتصل إلى عصر النهضة، وهي ما تزال محتفظة بالتصورات الصورية طبقاً للمنطق الأرسطي بحدوده وطرق استنباطه.

فالمنهج في هذه المرحلة يطلق عليه المنهج العقلي، لأنه يلتزم بحدود الجهاز العقلي ليستخرج النتائج منها، وهو في ذلك حريص على عدم التناقض.

الثاني: ارتباطه في عصر النهضة بحركة التيار العلمي.

وقد أخذ المنهج العقلاني المنطقي بعد عصر النهضة يسلك نهجاً مغايراً يتسم بنوع من الخصوصية خاصة مع "ديكارت" في كتابه "مقال في المنهج".

لذلك اقترن المنهج في هذه الفترة بالتيار العلمي، وهذا التيار لا يحتكم إلى العقل فحسب وإنما كذلك إلى الواقع ومعطياته وقوانينه. فالمنهج — إذن —

اقترن بنمو الفكر العلمي التجريبي، ووقع التزاوج بين طرائق العلماء والمنهجين، وولد ما يسمى بالمنهج التجريبي، ولكن ليس معنى هذا أنه تم التخلي عن المفهوم الأول ليحل محله الثاني بصفة مطلقة، وإنما صار ثمة

تعايش بين المفهومين، فقد يطلق المنهج ليراد به المنظومة المرتبة التي يمكن عن طريقها الوصول إلى نتائج منطقية، وقد يطلق المنهج ليراد به المنهج التجريبي.

أما في العصر الحديث فقد تعددت الشروط والمواصفات التي تحدد طبيعة المنهج العلمي، لكن موضوع دراستنا لا يتطلب الإفاضة في هذا، ولذلك سوف يقتصر الحديث هنا عن المنهج النقدي الذي يهم درسنا.

والمنهج النقدي له مفهومان، أحدهما عام والآخر خاص.

أما العام، فيرتبط بطبيعة الفكر النقدي ذاته في العلوم الإنسانية بأكملها، وهذه الطبيعة الفكرية النقدية أسسها "ديكارت" على أساس أنها لا تقبل أي مسلمات قبل عرضها على العقل، ومبدؤه في ذلك الشك للوصول إلى اليقين، فرفض المسلمات إجرائياً وعدم تقبل إلا ما تصح البرهنة عليه كلياً، هو جوهر الفكر النقدي، وهو جوهر فلسفي يرتبط بمنظومة العلوم كلها، ولهذا الفكر النقدي سمة أساسية، وهي أنه لا يقبل القضايا على علاقتها انطلاقاً من شيوعها وانتشارها، بل إنه يختبرها ويدلل عليها بالوسائل التي تؤدي إلى التأكد من سلامتها وصحتها، وذلك قبل أن يتخذ هذه القضايا أساساً لبناء النتائج التي يريد الوصول إليها.

أما الخاص، فهو الذي يتعلق بالدراسة الأدبية، وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها، وهو بهذا المفهوم يتحرك طبقاً لمنظومة خاصة به تتألف من مستويات مختلفة لعل من أهمها:

مستوى النظرية الأدبية:

فكل منهج لابد له من نظرية في الأدب، ونظرية الأدب هذه تطرح أسئلة جوهرية، وتحاول إقامة بناء متكامل للإجابة عن هذه التساؤلات، وأهم هذه الأسئلة هو، ما الأدب؟ أي التساؤل عن طبيعة الأعمال الأدبية وماهيتها وعناصرها وأجناسها، وقوانينها، والسؤال الثاني يرتبط بعلاقة الأدب بالمجتمع والحياة والمبدع والمتلقي، أي علاقة المدونة الأدبية بما يرتبط بها وما يخرج عنها سواء كانت العلاقة محاكاة أو تخيلاً أو انعكاساً أو علاقة انطباع أو ارتباط عفوي كما تتصور نظريات الحداثة.

النظرية الأدبية — إذن — لابد أن تجيب أو على الأقل تحاول الإجابة عن هذين السؤالين، عن طبيعة الأدب، وعلاقاته ثم تجيب عن سؤال ثالث يتصل



بوظائفه الجمالية والإنسانية وكل نظرية تسفر عن مجموعة من العمل التي ينبغي أن نسلها للبرهنة على تحقيقها بمقادير مختلفة، هذه السبل والإجراءات التي يتخذها أصحاب أية نظرية لتحليل الأعمال الأدبية وللبرهنة على توافق القوانين الداخلية والخارجية لها، هي التي تمثل فيها المنهج المصاحب للنظرية الأدبية، وكل نظرية تعدل من المناهج السابقة عليها لتتوافق مع مبادئها وأدواتها ومسلماها.

لذلك فالمفهوم المعرفي المؤسس للأدب هو النظرية، والمنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها ويمارس فاعليته، ويتم تداوله أو بعداً مع الواقع الإبداعي. والمنظومة الاصطلاحية، تمثل الطرف الثالث في العملية المنهجية، فعندنا - إذن - النظرية والمنهج والمنظومة الاصطلاحية، والأخيرة تمثل الأدوات التي تطبق بها المنهج وهي خاضعة للتغير من منهج إلى آخر، وتلعب المصطلحات الخاصة بكل مجال دوراً أساسياً في التمييز بين اختصاصات المناهج.

هذه الأطراف الثلاثة - النظرية، والمنهج، والمصطلح - تمثل منظومة متكاملة تبدأ من الإطار الشامل "النظرية" وتنتهي إلى التقنية المتداولة التي يستعملها أصحاب المنهج في ممارساتهم العملية. هذه العلاقة كثيراً ما تتم فيها اختراقات لأنها غير معزولة تماماً عن عديد من المؤثرات في الحقول الجانبية المجاورة للحقل الأدبي والإبداعي عموماً، فالتحولات التي تحدث في أية نظرية تؤدي إلى تعديل في المنهج والمصطلح، وغالباً ما تتم تعديلات المصطلح بطرق الاستعارة من الحقول المعرفية المختلفة، فالفلسفة - مثلاً - كانت تمثل القوام الأساسي لنظرية الأدب الأرسطية، وهي نظرية تجريدية عقلانية، ولكن هذه النظرية عرفت تحولاً كبيراً في القرنين السابع عشر والثاني عشر، عندما أخذت الثورة الرومانسية تفرض وجودها، هذه الثورة ارتبطت بمجال معرفي شكل سندا أساسياً لها، هذا المجال تمثل في الحقل التاريخي، فنشأة الوعي التاريخي وتعديل تصورات الزمن كي تنفق مع معطيات الواقع ومستلزماته أصبحت هي المبادئ التي تمد المنظومة الرومانسية بمصطلحاتها. لذلك نجد أن العناصر الأساسية التي كانت تتردد في الكلاسيكية حل محلها عناصر ومصطلحات أخرى جديدة، فإذا كانت الكلاسيكية تتحدث عن المحاكاة فإن الرومانسية أصبحت تتحدث عن الفرد وعلاقته بالمجتمع، وعن عمليات التطور التاريخي، هذا فضلاً عن حديثها عن الزمن وإشكالاته، وهو خطاب يختلف عما

كان سائداً، وظلت الرومانسية هي المسيطرة على مجالي الأدب والنقد حتى مطلع القرن العشرين، عندما بدأ علم آخر ذو مكانة كبيرة في الظهور، هذا العلم هو "علم اللغة" حيث بدأ يستحوذ على بنك المصطلحات النقدية، وبدأت مفاهيمه تشيع في حقل الدراسات الأدبية والنقدية، وبذلك تغير نسق المعرفة الأدبية، لتقوم فيه اللغة بالدور الأكبر والأساسي المهيمن على ما عداها، وهنا نشهد تحولات النظرية الأدبية في ثلاث مراحل أساسية:

1 – عندما كانت الفلسفة هي مركز الثقل الموجه لحركتها.

2 – عندما كان التاريخ يحتل مركز الثقل.

3 – ثم تنتقل اللغة لتصبح النموذج المسيطر على نظرية الأدب في العصر الحديث.

إن العلاقة بين النظريات الأدبية المختلفة لا تقتصر على ارتباط كل نظرية بنموذج علمي تستمد منه مقولاتها ومصطلحاتها، وإنما يصبح لكل نظرية أيضاً تجليات منهجية عديدة يجمعها أساس معرفي واحد، ويشترط فيها ألا تكون متناقضة، بمعنى أن النظرية الأدبية الواحدة تسفر عن طرائق متعددة ومناهج متعددة في التطبيق، وهذه المناهج لها مصطلحاتها، ويمكن أن تتبادل الاصطلاح، هذا التبادل يضمن لها قدراً من الحيوية والمرونة في المصطلح النقدي، ولكن هذا التبادل محكوم بالاتساق المعرفي بين العناصر التي يتم تبادلها، وهذه نقطة جوهرية كثيراً ما نغفل عنها في دراستنا النقدية في عالمنا العربي، نتصور أن بوسعنا أن نخلط بين مصطلحات تعود إلى مناهج مختلفة في أصولها المعرفية، ونتصور أن ذلك يخلق نوعاً مما نزينه لأنفسنا ونطلق عليه مصطلحاً مرغوباً فيه هو مصطلح التكامل، هذا التلفيق الذي يسمى أحياناً بالتكامل يغفل عن أمر جوهري وهو أن نظريات الأدب تختلف فيما بينها اختلافاً جوهرياً في الأسس المعرفية التي تقوم عليها، وأنه لا ينبغي لنا على الإطلاق أن نضم عدداً من المصطلحات التي تنتمي إلى نظرية معينة ونلقه قسراً مع مصطلحات أخرى تنتمي إلى نظرية مخالفة لها معرفياً، لأن ذلك ينتج تناقضاً شديداً في المبادئ المؤسسة.

هناك توضيح آخر قد يشرح لنا بشكل أفضل العلاقة بين النظرية الأدبية والمنهج النقدي؛ وهو المتصل بعلاقة المنهج بالمذهب، لأن كثيراً من النظريات الأدبية كانت تتسم – خاصة النظريات القديمة – بشيء من العقلانية المطلقة، وترتبط بمنظومة الأفكار التي يعتقدونها ويؤمنون بها ويسلمون بمبادئها، دون

إخضاعها للتمحيص النقدي من ممارسي الأدب إبداعاً ونقداً ودراسة، عندئذ كانت تمثل ما يطلق عليه المذهب الأدبي.

والمذهب لم يكن مجرد طريقة في التفكير أو إجراء في التحليل، ولكنه منظومة من المبادئ التي تعطي صورة كلية وإجابة تامة عن السوالين الأساسيين، عن ماهية الأدب وعن علاقاته المتعددة، يؤمن بها الأديب مبدعاً وناقداً ويمارسها دون أية فرصة للتساؤل حولها أو التشكك فيها أو إخضاعها للمراجعة وإعادة النظر.

كان المذهب بهذا المفهوم أقرب إلى أن يكون أيديولوجياً، فتيارات الأدب القديمة الكلاسيكية والرومانسية حتى الواقعية كانت تتسم بهذا الطابع الأيديولوجي، لأنها كانت ترتبط بمبادئ عامة في الحياة تنتظم مظاهر النشاط الإنساني السياسي والاقتصادي والثقافي العام.

الأيديولوجية — إذن — لا تقتصر على الأدب، ولكنها تتجاوز ذلك لتشمل موقف الإنسان في الحياة وعلاقته بالمجتمع ووضعه في التاريخ والعقائد التي يدين بها. ارتبطت المذاهب الأدبية في الفترات السابقة على القرن العشرين ارتباطاً حميماً بهذه المفاهيم الأيديولوجية، كان لذلك تأثيره الشديد الواضح على مناهج النقد، وتأثيره المباشر على مصطلحات النقد الأدبي، لأن النظرية طالما تعدت المجال الأدبي لتشمل موقف الإنسان في الحياة تصبح أكثر شمولاً وإلزاماً وعدم قابلية للمراجعة الدورية، بمعنى أنه يمكن لنا مراجعة أفكارنا الأدبية من حين لآخر إذا لم تلتحم بشكل واع أو غير واع، مباشر أو غير مباشر بموقفنا الأيديولوجي، فإن حدث ذلك يصبح مراجعة هذه المبادئ وتعديلها أمراً بالغ المشقة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يغير رؤيته للحياة وموقفه منها بشكل سريع متلاحق يتسق مع سرعة إيقاع تغييره لأفكاره عن الأعمال الأدبية ذاتها وهذه هي الصعوبة.

إذن نستطيع أن نقول إن الفرق الجوهرى بين المذهب والمنهج يتمثل في أن المذهب له بطانة أيديولوجية يصعب تحريكها، بينما المنهج يتكى في الدرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية أو علمية يمكن حراكها وتغييرها، فيصعب على الأديب الذي يعتنق مذاهباً أن يغيره بسرعة، بينما يسهل على المفكر الذي يعتنق أو يقتنع بمنهج محدد ثم يجد فيه جوانب واضحة من القصور أن يستكملة بقدر أكبر أو يعدله بمرونة أوضح.

إن الطابع المرن للمنهج يرتبط بصفة أساسية، وهي اقتران المنهج بالعلم؛ لأننا نعرف أن العلم لا يؤمن بالمسلمات، فقوانينه دائماً موقوته، توضع لتتفى، فمرونته الداخلية هي خاصيته الأساسية.

إن نظرية العلم تتميز طبقاً للصياغات الفكرية الحديثة بأنها تسمى أحياناً "النظرية التكوينية"، بمعنى أن كل ما يقبل التكذيب والتعديل والتجاوز ينتمي إلى العلم، وما لا يقبل التكذيب أي أنه من قبيل الحقائق المطلقة الأبدية الخالدة فهو ليس من مجال العلم، هذا يعني أن الحركة المستمرة هي القانون الأساسي في العلم.

فالمنهج عندما يقترن بالعلم يكتسب هذه الخاصية الحركية، ويختلف تبعاً لذلك عن مفهوم المذهب لأن المذهب يعتمد على مبادئ مسلم بها لا تقبل الشك الطعن في مدى زمني أو مساحة محدودة، ولكن على المدى البعيد عندما تتغير المذاهب وتختلف المراحل التاريخية يمكن أن نتصور أن هذا اليقين المطلق لم يعد صحيحاً ويمكن تغييره، نتيجة لذلك نجد أنه ابتداء من العصر الحديث تراجع فكرة المذهبية في الأدب والنقد، وحلت محلها فكرة المنهجية، هذا التراجع اقترن بتراجع الأيديولوجيا والمنظومات الكلية الشاملة التي تزعم درجة عليا من اليقين والحقيقة، وتزايد الطابع النقدي والارتباط الأوثق بالجوانب العلمية بما فيها من نزعة تكديبية، ونقص بالنزعة التكوينية قابلية العلم دائماً لتعديل حكم القيمة خضوعاً لحكم الواقع.

تلك هي النقطة الجوهرية في العلم، فهو لا يطلق قِيماً مثل الأيديولوجيا لكنه يمسك بحقائق، وينحى الأفكار القيمة كلها التي تمتلك أهمية خاصة لبعض المبادئ لكي يركز على كيفية تمثلها في الواقع.

هذا النزوع العلمي هو الذي جعل النقد يتطور طبقاً لتطور نظريات الأدب ذاتها من مرحلة المذهبية إلى مرحلة المنهجية، ونلاحظ أيضاً أن هناك قدراً من التداخل بين المناهج المختلفة، لأن الفواصل التي تعزلها ليست قاطعة أو حاسمة، لكن هذا التداخل لا يؤدي عند النظر الصحيح إلى الاختلاط أو التشويش، فهناك مناطق مشتركة تتعدل بها المناهج طبقاً لكشوفها المتوالية، إلى جانب هذا التداخل نجد أن هناك حالات من التخارج والتباين وهما يتضحان في المقام الأول عند اختلاف الأسس المعرفية للمناهج المتعددة، وفي هذه المناطق لا يمكن أن يلتقى منهجان إذا اختلفت أسسها المعرفية وإذا اختلفت النظريات التي يعتمدان عليها، أما عدا ذلك فنسجد أن مناطق التداخل أكثر شيوعاً وانتشاراً، فالمناهج تعدل من حركتها في مسارها بمحاولة استخلاص العناصر

الفعالة التي ما زالت قادرة على الإجابة المعدلة باستمرار عن أسئلة النظرية الأدبية وإدخالها في النسيج المنهجي الجديد، وبعبارة أخرى وبمثال واضح نجد أن الانتقال من المناهج التاريخية إلى مجموعة مناهج البنيوية وما بعدها قد تم في مرحلة محددة حاولت إنكار أية جدوى وأية أهمية لمجموعة المناهج التاريخية للانقلاب عليها وإحداث قطيعة مع الماضي، لكن هذا الأمر لم يستمر وقتاً طويلاً كما سندرسه بالتفصيل، حيث تبين أن المناهج التاريخية ذاتها أخذت تستمد بعض مقولاتها وتكيف نظرياتها وتصنع مصطلحاتها الخاصة بها كي تنفذ إلى قلب المنهج البنيوي، تأخذ منه مجموعة من تصوراتها وتضمها إلى جهازها النظري والإجرائي والاصطلاحي، ولم تلبث البنيوية نفسها بعد أن كانت في بدايتها شكلية بحتة مضادة للتاريخ أن تعدل مقولاتها لتستبقي تلك العناصر التي مازالت فاعلة ووظيفية وضرورية في نظرية الأدب التاريخية وتدرجها في نسقها الجديد فيما بعد البنيوية.

لكن يجب التأكيد على أمرين، من حيث طبيعة التداخل والتخارج بين المناهج المختلفة:

الأول: إن هذا التداخل لا يمكن أن يتم في ظل تكامل مفتعل ملفق، ولا بد أن يتم بين عناصر قابلة للاتساق المعرفي وليست متناقضة.

الثاني: إنه يوظف دائماً لاستكمال الإجراءات التي تؤدي إلى نجاعة التحليل النقدي للظواهر الأدبية.

نستطيع إذن اعتماداً على هذا المفهوم العام للمنهج وتطوره من الارتباط في المراحل الأولى بالجهاز المنطقي الفلسفي، للاقتتان منذ بداية العصر الحديث بالطرائق العلمية التجريبية الاستقرائية أن نتمثل بصفة عامة الشكل الكلي للمناهج النقدية وهو يتجسد في منظومتين:

المنظومة الأولى:

وهي منظومة تاريخية بتجلياتها المتعددة، ولا تضم نظرية واحدة في الأدب وإنما تضم نظريات ومناهج عديدة.

المنظومة الثانية:

وهي منظومة البنيوية وما بعدها، وهذا هو المدخل الذي نستعرض منه خارطة المناهج النقدية.

ولكننا نريد أن نطرح سؤالاً، وهو سؤال أساسي في موقفنا من هذه المناهج، سؤال طالما طرح منذ بداية عصر النهضة العربية حتى الآن، ويبدو أن اللبس المحيط به لم يتم حسمه في أية مرحلة من المراحل مع أننا الآن في أشد الحاجة - وأكثر من أي وقت مضى - لأن نستوضح رؤيتنا له، ونذكر مساره الصحيح، هذا السؤال هو:

عندما نتكلم عن المناهج النقدية هل نتكلم عن الآداب القومية والمحلية والثقافات المتعددة بأنشطتها وتجلياتها المختلفة وانقساماتها الشديدة إلى مجموعة الثقافات الغربية والثقافات الشرقية التي تنتمي إلى قوميات وأجناس ولغات مختلفة؟ أم أننا نتكلم عن محصلة إنسانية عامة تشمل جماع هذه الآداب والثقافات وتطبق عليها جميعاً. وبعبارة أخرى في دراستنا للمناهج النقدية هل يصح التمييز أو ينبغي التمييز والفصل بين ما هو عربي وما هو أجنبي؟ وهل خضعت المناهج النقدية في الثقافة العربية لنفس المحددات والمقومات وأشكال التطور التي خضعت لها في الثقافة الغربية؟ وما هي العلاقة بين الدائرتين؟.

هذا سؤال بالغ الحساسية والخطورة، وينبغي أن نتعرض له بمدخل عام قبل أن نتحدث عن المناهج تفصيلاً.

والذين يطرحون هذا السؤال غالباً ما يتخذون مواقف متباينة، فمنهم من يؤثر الحديث عن فكر وأدب وثقافة عربية فحسب ويضعها في مقابل الفكر والأدب والثقافة الغربية والعالمية مقابلة التغاير والاختلاف، ويعتمد في ذلك على أسباب تاريخية ومنطقية معقولة، فلكل من الأفقين تاريخه وتطوره وارتباطاته الجذرية بالمجتمع والحياة والأوضاع السياسية والثقافية والعقائدية وخاصة الحواجز اللغوية، الأمر الذي يبرر في الظاهر المقولة التي تدعو إلى التمييز بين ما ينتمي للدائرتين العربية من ناحية والعالمية من ناحية أخرى.

هذا موقف علينا أن نأخذه في الحسبان وعلينا أن نخضعه لشيء من التحليل النقدي في الدرجة الأولى.

ولعل أصحاب الموقف الآخر المقابل لذلك الذين يرون أن الفكر الإنساني لم يتمثل أبداً في جزيرة معزولة، ولم يتطور عبر سجون اللغات والأقاليم، وإنما كان دائماً يجد سبله لاختراق هذه الحواجز ليسفر عن حركة ترتبط بطبيعة الحال بالمجتمعات التي تنشأ فيها وتخضع للشروط التاريخية التي تكيفها، لكنها لا تلبث أن تسري بعد ذلك في الفكر الإنساني كله، تخلق تيارات أشبه ما تكون

بتيارات عالمية، تحدد الملامح العامة لهذا الفكر، وتأخذ في حسابها اختلاف التضاريس، في التجليات المختلفة.

فمثلاً ما يطلق عليه الثقافة الغربية لا يمثل وحدة جغرافية ولا تاريخية، ولا لغوية واحدة، وإنما يخضع لعصور ومراحل عديدة، وينتمي إلى لغات وثقافات متخالفة ويجعلها منفصلة جغرافياً وتاريخياً ولغوياً وثقافياً، ومع ذلك لا يمنع هذا من أن ندرك شيئاً من الشمول الكلي بين تياراتها المختلفة، وأن المقولات الأيديولوجية خاصة المتعلقة بالعقائد التي كانت تفصل الناس وتكاد تجعلهم أجناساً مختلفة تقوم العلاقة بينها على منطلق العداة والحروب أكثر مما تقوم على منطلق التواصل الحضاري، فإذا كان هذا منطلق العصور الحديثة.

وربما كان التناول النظري لهذه القضية لا يسفر عن نتيجة موثوق بها، وكانت الأمثلة التاريخية هي التي تعدل نظرتنا أو درجة انحيازنا لهذا الفريق أو ذاك.

منظومة المناهج التاريخية

الفصل الأول

المنهج التاريخي

يعد المنهج التاريخي أول المناهج النقدية في العصر الحديث، وذلك لأنه يرتبط بالتطور الأساسي للفكر الإنساني، وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وهذا التطور الذي تمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التاريخي، وهذا الوعي التاريخي هو الذي يمثل السمة الأساسية الفارقة بين العصر الحديث والعصور القديمة.

وفيما يتصل بالمجال النقدي على وجه الخصوص، نجد أن الإطار الفكري انبثق داخله هذا الوعي التاريخي كما تمثل على وجه التحديد في المدرسة الرومانسية، لأنها كانت من الوجهة التاريخية عند نشأتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وانزياح دائرتها خارج المنطقة الأوروبية والغربية المركزية إلى الثقافات الأخرى ومنها الثقافة العربية إبان النصف الأول من القرن العشرين، كانت الرومانسية هي التي تبلور وعي الإنسان بالزمن وتصوره للتاريخ، ووضوح فكرة التسلسل والتطور والارتقاء، والقضاء بشكل نهائي على فكرة الدورات الزمانية - أو الحركة الانتكاسية للزمن والتاريخ، بمعنى أن الأفكار التي كانت سائدة قبل الحركة الرومانسية كانت تضع العصور الذهبية في الماضي، وتتنظر إلى الحاضر باعتباره تحلاً وانهياراً وتدهوراً.

جاءت الحركة الرومانسية لتعكس هذا الوضع بشكل أساسي ولتري مسيرة الإنسان في الزمن طبقاً لقوانين النشوء والارتقاء والتطور، والانتقال من المراحل البدائية إلى المراحل الأكثر تقدماً.

كانت الفلسفة - بطبيعة الحال - باعتبارها المجال النظري لوضع الأفكار الأساسية في الثقافة الإنسانية هي التي تمثل فيها هذا الوعي التاريخي، وذلك بتصوير العصور الماضية على أنها قد تدرجت من العصور البدائية التي كانت تسود فيها الأنظمة الأسطورية إلى العصور الدينية ثم إلى العصور الإنسانية الحديثة.

الرومانسية - إذن - في الفكر النقدي، هي التي بدأت التوجه إلى التمثيل المنتظم للتاريخ، باعتباره حلقة من التطور الدائم يتم فيها تصور الأدب باعتباره تعبيراً عن الفرد والمجتمع، وبالتالي فهو يرتبط بهذه الجدلية التي تعكس علاقة الفرد بالمجتمع، وباعتباره - وهذا هو الأهم - تعبيراً عن الحياة في تدفقها وانهماؤها.

إذن ربط الأدب بالواقع الاجتماعي والثقافية بأبعاده المتعددة، وتحمله وظيفة تغيير هذا الواقع، كان هو جوهر النظرية الرومانسية في علاقة الأدب بالحياة، وهو الذي انطلقت منه لمعارضة أشكال الأدب السابقة عليها، خاصة الكلاسيكية التي كانت ترى في الأدب مجرد محاكاة للأقدمين، باعتبارهم يمثلون النموذج الأرقى للإبداع، وهذه المحاكاة عكسها المنظور التاريخي عندما وضع هؤلاء الأقدمين في موضعهم الطبيعي في سلم التطور البشري، بحيث لا تكون أعمالهم هي النموذج المثلى للمبدعين في العصور التالية. ندرك هنا فلسفة التغيير الجوهرية التي جاءت بها الحركة الرومانسية وفي كيفية احتضانها لنشوء هذا الوعي التاريخي.

وقد ترتب على ذلك شيء بالغ الأهمية وهو تمثل الإنتاج الأدبي في جملته باعتباره عاكساً لحركة الحياة والمجتمع، وتطوراتها، وممثلاً على وجه الخصوص للطاقة الثورية فيها، وإرادة التغيير، وفقدان الحكم والضيق بالواقع والتمرد.

الثورة - إذن - كانت انعكاساً لتفاعل الحيوي للإبداع الأدبي مع الواقع الاجتماعي الخارجي، بمعنى إحلال منظومة من المثل الاجتماعية والثقافية والأدبية، مخالفة للمنظومات السائدة.

الأسبق بذلك نمو حركة البحث العلمي الأكاديمي في الأوساط الثقافية العصور السابقة، كان هذا يمثل الترجمة العلمية للنزعة التاريخية في دراسة الأدب ونقده، وضرورة الاهتمام بالتوثيق، وعدم قبول الأشياء كمسلمات، والاعتماد على العقل والبرهان، والتعامل مع النصوص من منطلق تحديد درجة نسبتها إلى أصحابها وتوثيقها، ودراسة المصادر الأدبية، وعلاقات التأثير والتأثر بين الأدباء المختلفين، وعلاقات الآداب المحلية بالآداب العالمية. وكل هذا أكمل التصور الزمني، وإلى جانب تمثل التاريخ كسلسلة من الحلقات التي تخضع لقوانين التطور والارتقاء هناك تمثل المكان مرة أخرى باعتباره إطاراً آخر تنتظم فيه علاقات الإبداع المحلية، والإقليمية والعالمية في دوائر متفاعلة ومتداخلة في الآن ذاته، أي أن التنظيم العلمي للمادة الأدبية ودراساتها بتحديد مصادرها، وتوثيق نصوصها، وتحليل مخطوطاتها والكشف عن علاقاتها وعوالم التأثير والتأثر فيما بينها، كان الخطوة التالية في المنهج التاريخي الذي ترتبت على تأسيسه طبقاً لفكرة الوعي التي رسختها المدرسة الرومانسية.

ولعل هذا التوجه في توثيق المادة الأدبية وتنظيمها زمنياً، ثم ترتيبها طبقاً لأهميتها كان مرتبطاً - أيضاً - بنشأة الطباعة وإعادة النشر والإمكانات الهائلة الجديدة التي توافرت في عصر الطباعة.

لم يكن ذلك ممكناً في العصور السابقة، لأن طبيعة تداول الأعمال ذاتها، واعتمادها على نماذج المخطوطات لم تكن تسمح بإقامة مثل هذا النظام.

وهذا النظام يعتبر سمة جوهرية مرتبطة بطبيعة التطور في العصر الحديث، ولعل هذه النقطة - على وجه التحديد - هي من تلك النقاط التي ما زالت قائمة وضرورية في البحث الأدبي، إذ إن الخطوة الأولى التي ينبغي على الباحث أو الدارس أن يتأكد منها قبل الشروع في بحثه، هو أن يتساءل عن مادته، ومدى تحققه من نسبتها إلى أصحابها، الأمر الذي ترتب عليه الاهتمام بالمؤلفين، وتوثيق حياتهم وكتابة تاريخهم، ثم الكشف عن مصادريهم في التأليف، ووضعهم على الخرائط الثقافية العامة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر تقدم الفكر التاريخي خطوة هائلة نتيجة للفلسفة الجدلية عند "هيجل" وعلى وجه التحديد ابتداء من الفلسفة الماركسية.

لقد أصبحت الماركسية منذ نهاية القرن التاسع عشر تمثل الأساس الصلب للتصور التاريخي للأدب والفن، فالماركسية في تمثلها لبناء الحياة المختلفة -

ومصطلح البناء مأخوذ من مجال المعمار – أدارت تصورهما على أساس أن هناك أبنية سفلى وأبنية عليا.

فالأبنية السفلى تتمثل في حقائق الحياة المادية المتعينة المتمثلة في الوجود الفعلي الخارجي للمجتمعات والبشر في تجسدها المادي في الجانب الاقتصادي، والسياسي، ونظم العلاقات الاجتماعية على وجه التحديد في الإنتاج المتمثل في الحياة ابتداء من طرق المعيشة وأنماط الحياة الرعوية والصناعية.. الخ، والأبنية السفلى لا تعني حكم قيمة بأنها أدنى من غيرها، بل تعني على العكس من ذلك تصوراً مكانياً.

أما الأبنية العليا فهي تنبثق من هذه البنية السفلى، تتمثل في القوانين والشرائع والأنظمة الاجتماعية، ولعل الطبقة الأشد تبلوراً ورهافة فيها وبعداً عن هذه البنية السفلى، ولكن اعتماداً في الآن ذاته عليها هي الآداب والفنون.

وقد اعتمدت الماركسية – إلى جانب ذلك – على تصور فلسفي للعصور المختلفة، واعتمدت على وجه الخصوص على مقولة "الحتمية التاريخية" أي أنها طبقاً لمنظومتها الفكرية الفلسفية تمثلت التاريخ البشري باعتباره مراحل لا بد أن تتوالى على النمط الذي وضعته، وقد تمثلت في الإنتاج الفكري والأدبي طبقاً لمحورين:

المحور الأول:

هو انبثاقه المباشر وتكيفه الضروري بالواقع المادي الملموس في المجتمع والحياة، وهذا إقصاء لكل الجوانب المثالية والفكرية والذهنية في تكيف الأدب والفن، والتركيز على الجوانب المادية.

المحور الثاني:

ربط الإنتاج الأدبي والفني والفكري بالتسلسل طبقاً لحتمية ثابتة، وجبرية لا فكاك منها، كل الفنون تبدأ بطريقة فطرية انطباعية عشوائية، تخضع للنظام الرأسمالي، ولا بد أن تصب في نهاية الأمر في المستقبل الاشتراكي، وكل الآداب والفنون التي لا تتجه هذه الوجهة فهي مضادة لحركة التاريخ وفاقة لمصداقيتها، هذا هو المنظور الماركسي الجوهري، فهو تاريخ حتمي

لعبت النظرية الماركسية دوراً هاماً في تكريس نموذج محدد للتطور التاريخي بعدما كان مفتوحاً في النظريات السابقة عليها خاصة الرومانسية، وذلك عن طريق الدعوة إلى حتمية التطور التاريخي نحو الاشتراكية، وبهذا

أصبحت تضع الإنتاج الأدبي والفني في قوالب طبقاً لمحددات متعينة سلفاً بحدود النظرية، بالرغم من المراجعات الكثيرة أو وجوه النقد العميقة التي أدخلها الماركسيون المنحرفون في مجال الأدب، ويكفي - هنا - أن نشير إلى اسم بالغ الأهمية، وصانع النظرية الماركسية المتطورة في الأدب، والمنشق على الفكر الروسي الذي تحدد ابتداء من عام 1933 في المؤتمر الأول للكتاب الاشتراكيين، وهو "جورج لوكاش"، ونشير هنا إلى تصور لوكاش للرواية لأنه يرتبط بالمنظور التاريخي في دراسة الأدب، والفكرة التي نريد الإشارة إليها هي أنه لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه الرواية التاريخية، لسبب بسيط هو أن كل رواية لا بد أن تكون تاريخية، وغاية ما هنالك أنها إذا كانت تدور عن القديم فهي تتصل بالتاريخ القديم، أما إذا كانت تدور في الوقت الراهن فهي تتصل بالتاريخ المعاصر، وليس من حق الأدب ألا يكون تاريخياً، بمعنى - وهذه هي النقطة المحورية التي نود الإشارة إليها - أن التاريخ لم يعد مجرد احتمال من احتمالات متعددة في الإبداع الأدبي والفني أو طريقة من الطرائق المختلفة في تناول هذا الإبداع بالبحث والدراسة والنقد، وإنما أصبح قدراً لا بد للمبدعين أن يلتزموا به، ولا بد لمن يعالج أعمالهم بالنقد والدراسة أن يتمثله ويستقري قوائمه، ويطبقها على هذا الإنتاج.

فالتاريخ ابتلع الأدب، ابتلع الفن، ابتلع الثقافة، لكن التاريخ بمنظور محدد بقوانين معينة سلفاً، وهو أنه عليه أن يساق سوقاً كما تساق المجتمعات لكي يفضي في نهاية الأمر إلى التحقيق الاشتراكي في الفردوس الموعود في المستقبل القريب، سواء أسرعت الشعوب في طريقها لتحقيق هذا النموذج الفردوسي أو تباطأت، لكنها مضطرة أن تذهب إليه في نهاية الأمر إلى جانب هذا التمثل الصارم لخضوع منطق الإبداع، والبحث والدراسة للجبرية التاريخية.

هناك مناهج أخرى في النقد كانت أكثر تخففاً ومرونة من المنهج الماركسي، تسلم بمبادئه، ولكنها تفسح هامشاً لحرية الفرد، وحرية المبدع، وحرية الباحث، وحرية النقاد، بحيث لا يصبح مضطراً على أن يندرج في هذه المنظومة الحتمية، سنشير إلى أهم هذه المناهج:

الواقعية النقدية:



وقد تبلورت في منتصف القرن العشرين، بعد الحرب العالمية الثانية، وتمثلت في نظرية الالتزام الوجودية، والتي تمثلت في قضية علاقة المبدع

بالواقع تمثلاً فيه كثير من الحيوية والمعاصرة والتطوير للفكرة التاريخية.

فالمبدع أو الأدب - على وجه التحديد - يعتبر قائداً فكرياً في مجتمعه، وهذه القيادة الفكرية تجعله لا يستطيع على الإطلاق أن يتجاهل أهم القضايا الجوهرية التي تواجه المجتمع في صراعاته الداخلية، أو في صراعاته الخارجية مع الغازي الذي يمكن أن يحتل وطناً مثلاً. وقد كانت تجربة الوجودية مع النازية وغزو ألمانيا، لأوروبا تجربة مريرة في الحفاظ على استقلال الأوطان وهويتها. وكذلك التجربة الداخلية في صراع الطبقات، وضرورة الدفاع عن الحرية، حرية الفرد تجاه قمع كل السلطات.

هناك عدد من القضايا الأساسية، اعتبرت الفلسفة الوجودية أن المشتغل بالفكر الأدبي إبداعاً ونقداً، لا يستطيع بحال أن يتخذ موقفاً سلبياً منها ولا أن يهرب من أداء وظيفته وتحمل مسؤوليته تجاهها.

الوجودية - إذن - في الفكر الإبداعي وفي الفكر العام، ولكن الإبداع كان هو البلورة الصافية لهذا الفكر تقضي بأن هناك ثنائية جوهرية تحكم علاقة المبدع بالحياة، هذه الثنائية تتمثل في: الحرية/ المسؤولية، بمعنى أنه لا أحد يلزمك بتبني قضية لا بد أن تتبناها أنت، وهذا هو مجلى الحرية. الحياة موقف بالنسبة للمفكر الوجودي الأدبي، تتحدد أقدار الناس وقيمتهم طبقاً لمدى قدرتهم على صناعة مشروعاتهم في الحياة، وطبقاً لنوعية المواقف التي يتخذونها أثناء صياغتهم لهذه المشروعات.

إن المسؤولية والحرية هما طرفا الجدلية الجديدة التي تغرس الوجود الإنساني في التاريخ، وتمثل التطور النقدي للمنظور التاريخي عند الوجوديين، وبين قطبي الحتمية التاريخية، والموقف الوجودي، كانت قد اختمرت المدرسة التاريخية الحقيقية في دراسة الأدب.

ولابد لنا أن نرجع إلى الوراء قليلاً، ونقفز من منتصف القرن العشرين إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لنعرف الخط الثاني من الفكر التاريخي النقدي.

وقد تمثل الخط الثاني على وجه التحديد في مجموعة من النقاد الكبار أصحاب الدعوات الأساسية في ربط الأدب بالحياة، وتأسيس طرائق التحليل النقدي لهذا الأدب، بالإفادة من المعطيات التاريخية، ومن العلوم المختلفة، نشير

فقط إلى اسمين جوهريين ممن أسهموا في تشكيل الاتجاه التاريخي في النقد الأدبي بعيداً عن قطبي الأيديولوجية الماركسية من ناحية والوجودية من ناحية أخرى، وهذان الاسمان هما "تين" و"لانسون".

أما "تين" فهو ناقد فرنسي كبير عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث ربط الأدب بالعوامل الثلاثة الأساسية المكونة له، وهي:

1- البيئة.

2- الجنس.

3- الوسط.

ونظرية "تين" تعتبر ترجمة معتدلة للنظريات الحديثة في ربط الأدب بالحياة، والتي تتحكم فيها العوامل الزمانية والمكانية المؤثرة فيه والتي تصبغ أدبه.

وقد أخذ على نظرية "تين" من الوجهة الفكرية عدم إفساحها مكاناً ملائماً للعبقرية الشخصية. كاف لجعل البيئة والظروف الخارجية التي تحدد نوعية الإبداع ومستواه، ما يكفل أن هذه البيئة كثيراً ما يتعاش فيها مبدعون، فينبغ أحدهم وينتج أعمالاً غاية في القوة والجمال، ويظل آخرون غير قادرين على هذا الإنتاج، وكلهم خضعوا لنفس المؤثرات الخارجية، الأمر الذي يتطلب إفساح مكان للعنصر الفردي وأهمية الموهبة الفردية في الإبداع الأدبي.

ولكن "تين" قد تدارك هذه الفكرة عندما أشاد بعبقرية شكسبير في مقدمة كتابه عن الأدب "إنجليزي".

إن هناك أشخاصاً أدياء كباراً، يرتفعون بقاماتهم عن الوسط الذي عاشوا فيه، ويحققون بمواهبهم مستويات نوعية من الإبداع لا يمكن أن تفسر فقط طبقاً لنظريته السابقة، بل لابد من إدخال عامل آخر، وهو عامل الموهبة الفردية وعبقرية الأشخاص في حساب الناقد والدارس للإبداع الأدبي.

وفي بداية القرن العشرين تبلور المنهج التاريخي في الأوساط العلمية والأكاديمية عند أستاذ عظيم هو "لانسون" وهو يعنينا هنا بصفة أساسية لأمرين:

الأول: أنه من أكثر الأساتذة الذين أثروا في النقد العربي، ويكفي أن نعد من تلاميذه على الأقل طه حسين من الجيل الأول من نقادنا العرب، ومحمد مندور من الجيل الثاني، الأمر الذي يجعل اللانسونية - وهي التسمية التي

نطلقها على المنهج التاريخي في النقد نسبة له لأنها تبلورت لديه - ذات أثر كبير على النقاد العرب.

الثاني أن لانسون على وجه التحديد في كتابه "منهج البحث في الأدب" وهو كتاب بالغ الوجازة والكثافة والجمال، نستطيع أن نتبين الخطوط الأساسية للمنهج التاريخي في دراسة الأدب ونقده فيه، فقد كان كتاب لانسون هذا هو البلورة العلمية الأخيرة للمحددات الأساسية في المنهج التاريخي في النقد الأدبي.

ولكن النقد التاريخي ما لبث أن تطور وانزلق إلى نوع آخر من النقد وهو الذي نطلق عليه النقد الاجتماعي، ويكفي هنا أن نشير إلى العلاقة الجوهرية بين النقد التاريخي من ناحية، والنقد الاجتماعي من ناحية أخرى تثبت وأن حاضنة النقد الاجتماعي كان هو النقد التاريخي، بمعنى أن أهم المبادئ التي نمت بعد ذلك واستقرت في النقد الاجتماعي قد نشأت في حوض النقد التاريخي.

ولذلك نجد من العسير في الثقافة العربية - إلى درجة كبيرة - أن نفصل بين التوجهين، لأن الحدود متداخلة بين المنهجين، وربما كانت وسيلتنا في الفصل بينهما هي نفس الوسيلة التي أشرنا إليها عند الحديث عن "لوكاش" عندما قال: إن البحث والنقد إذا توجه إلى التاريخ القديم كان تاريخياً وإذا توجه إلى العصر الحديث، يمكننا أن نسميه حينئذ اجتماعياً.

والنقد الاجتماعي نفسه قد أثر بدوره في توسيع دائرة اهتمام النقد التاريخي بالعصور القديمة، فبينما كانت الدراسات التقليدية السابقة تهتم في العصور القديمة بالإبداع الأدبي المرتبط فحسب بحركة الساسة وقيام وسقوط الدول، وبلاط الملوك والخلفاء والحكام والولاة، استطاع النقد الاجتماعي أن يطور في هذا المفهوم التاريخي ليجعل الاهتمام ينصب - أيضاً - على الهامش المقموع، والمبدعين البعيدين عن السلطة، وأدباء الشعب ومن تغفلهم المصادر، وتسقطهم الذاكرة التاريخية الرسمية، وخاصة في الإبداعات الكبرى الجماعية للشعب، وما عنيبت به على وجه التحديد مدارس الفلكلور، ودراسة الفنون الشعبية والأدب الشعبي. كان هذا مظهراً من مظاهر تأثير التوجه الاجتماعي في تطوير المفاهيم التاريخية في الأدب ونقده.

والآن نتبين مجموعة النتائج الأساسية المترتبة على دراسة المنهج

التاريخي:



نوعاً ما يتصل بالتوزيع النوعي للأجناس الأدبية، بمعنى أن تناول وتنظيم المراحل التاريخية المختلفة كان من الضروري تقسيمه إلى شعر ونثر، وملاحظة الفوارق النوعية بين الأجناس الأدبية المختلفة وانقسامها إلى شعر غنائي وشعر ملحمي وشعر مسرحي، ثم في العصور التالية إلى شعر غنائي، وكتابات سردية قصصية وروائية، وكتابات مسرحية ونثرية، كان هذا التقسيم من الوسائل الهامة للمنظور التاريخي في النقد الأدبي، لأن دراسة خارطة الأنواع الأدبية وتحولاتها المختلفة وأشكال تداخلها أصبح من مهام حركة النقد الأدبي، الذي كان علم التاريخ يقدم النموذج التصوري والنظري له.

ثانياً: تنظيم خرائط العصور المختلفة والفترات الزمنية، وكتابة تاريخ الآداب، والتاريخ الأدبي نفسه يدين في هذا للمنهج التاريخي النقدي في نشأته وازدهاره، التاريخ الأدبي باعتباره علماً موازياً ومتداخلاً ومستقلاً عن النقد.

لكن النموذج الذي ساد في تاريخ الأدب - للأسف - أصبح نموذجاً تقليدياً، لأنه جمد بعض المقولات الجوهرية واتكأ عليها وأخذ يكررها طبقاً لهذا النموذج في تاريخ الأدب، وأصبح هناك تبعية مباشرة تربط الأدب بالأحوال السياسية والاجتماعية، بمعنى أن يتعين على الدارس أن يبدأ من خارج منطقة الأدب، يبدأ عند دخوله الكتابة عن أية ظاهرة أدبية بالاكْتفاء بتريد المقولات التاريخية المذكورة عن الحياة السياسية والاجتماعية مع ذكر إشارات عابرة تعتمد على "الأكلاشيتهات" المتداولة عن الحياة الاقتصادية، ثم عن الأوضاع الثقافية، وعندما يفرغ الدارس من ذلك لكي يتحدث عن الظاهرة الأدبية التي وضعها موضع دراسته، وتمثل مجال تخصصه، يكون قد انقطع نفسه، ولم يعد أمامه إلا أن يشير إشارات عابرة إلى الأعمال الإبداعية في ذاتها لكي يربطها ربطاً آلياً بكل المعلومات والبيانات التي سبق أن قدمها كمدخل لدراسته.

المشكلة في هذا التصور أنه يفتقر إلى عنصرين جوهريين، وهذا هو مازق النموذج السائد في المنهج التاريخي، وهذان العنصران هما:

العنصر الأول: يتمثل في أنه يتكئ على مجالات معرفية وعلمية، لا يملك الباحث في الأدب الأدوات التي تمكنه من البحث فيها، وتجهيز مادته بنفسه.

فعلوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ لها أدواتها وطرائقها ووسائل تحليلها، والباحث في الأدب - عادة - يعتمد على غيره من المتخصصين في تشكيل مادته التاريخية لأنه لا يملك الوسائل والأدوات التي تجعله يضيف إضافة حقيقية للمادة المدروسة، بحيث يكون تابعاً لغيره ومستخدماً لمادة سابقة التجهيز دون

أن يتمكن من إضافة شيء إليها أو تعديل مقولة من مقولاتها، هذا هو العيب الأول في الاستخدام الآلي لمنظومة المنهج التاريخي في تحليل الأدب.

العنصر الثاني: وهو أخطر من الأول، لأن البيانات التي يجمعها من هذه المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية غير قادرة على الإطلاق على الكشف عن القيمة النوعية للأعمال الإبداعية التي يحللها، فالكشف عن القيمة النوعية لمستوى الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية، وبيان قيمتها الجمالية هي الوظيفة الحقيقية لدارس الأدب، لأن دارس الأدب وناقده هما الخبيران في الأدب ونقده، والخبرة بالمادة تقتضي القدرة على معرفة المستوى الإبداعي، فإذا تساوت لدى دارس الأدب كل الأعمال الإبداعية، ووضعت على نمط واحد، فقد فقد قدرته على التمييز، وتنازل عن مهمته التخصصية في دراسة المادة الأدبية، هذا الكشف عن القيمة النوعية لا تفلح الأدوات المستعارة من المجالات المعرفية الأخرى في تحقيقه عند مقارنة نص إبداعي، وعندئذ نجد أن تاريخ الأدب كثيراً ما يفتقر لهذه الوظيفة الجوهرية، وهي القدرة على أن يضع أعمالاً إبداعية موضع تقدير طبقاً لقيمتها الجمالية، وذلك لسبب بسيط هو أنه نتيجة للمنهج الذي يستخدمه الدارس، فإنه يميل إلى التركيز على تلك النصوص التي تخدم الإشارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ركز عليها، وتصبح الأعمال الأدبية مجرد شواهد على هذه الحقائق، ومجالاً لإضعاف قدرة الباحث على قراءة النصوص وتحليلها واكتشاف المعايير الجمالية والنقدية الصالحة لهذه القراءات الكاشفة عن قيمة العمل الأدبي، لكن ليس معنى ذلك أننا نطالب باستبعاد تاريخ الأدب، وإنما يجب على دارس الأدب أن يطور مفهومه وأساليبه، وأن يبحث عن أدواته التي لا يصبح فيها عالية على غيره من ناحية، وألا يفقد قدرته على تمييز القيمة النوعية لمادته من ناحية أخرى ولكن يظل تاريخ الأدب الذي كان أحد النتائج المهمة جداً للمنهج التاريخي في نقد الأدب فرعاً مهماً من الدراسة الأدبية، لا بد من الاهتمام به وتطويره.

من النتائج المترتبة على تحكيم المنظور التاريخي، ما نعرفه في تاريخ الآداب العالمية والعربية من دراسة المذاهب الأدبية المختلفة والمرتبطة بصور متعددة، ما نعرفه - مثلاً - في مذاهب النقد الأدبي ابتداءً من الكلاسيكية إلى أن نصل إلى المناهج الحداثية الأخيرة، ولأننا نعرف أن الكلاسيكية إما أن تكون هي الكلاسيكية القديمة ذاتها، أو الكلاسيكية الجديدة التي ترتبت على بعث النظريات القديمة، وتأويلها وتفسيرها في عصر النهضة، وكذلك الرومانسية التي نشأت في الفترات

التاريخية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وانتقلت إلى العالم العربي في القرن العشرين بتجليات مختلفة، إلى غير ذلك من المذاهب الأدبية التي نشأت بعد الرومانسية وظل لها تأثيرها في مذاهب النقد الأدبي.

والنقطة الأخيرة التي أود أن أشير إليها في عرضنا المنظور التاريخي هي النقطة الخاصة بالمصطلحات.

إن المنهج التاريخي في نقد الأدب يستعير مصطلحاته - بطبيعة الحال - من مجالات التاريخ، التي تتحدث عن العصر والبيئة وغيرهما وكذلك يستعير مصطلحاته من تلك المصطلحات التي نشأت ونضجت وتطورت على مر التاريخ، وأصبحت علامة على منظومات فكرية، ومذهبية، إلى جانب ذلك فإن المنهج التاريخي قد يستعير مصطلحاته من علم الأحياء عندما يتحدث عن النشأة والتحول والتطور والموت، وقد يستعير بعض مصطلحاته من علم الاجتماع.

إذن نجد الجهاز المفاهيمي "منظومة المصطلحات" في المنهج التاريخي تستقي من هذه العناصر مرتبة على النحو التالي: التاريخ أولاً، أي المصطلحات التي اختمرت عبر المراحل التاريخية واستقرت في الوعي الثقافي، وثانياً المصطلحات المتنوعة من علم الأحياء.

أهم مراجع المنهج التاريخي:

- 1- المنهج التاريخي: للدكتور حسن عثمان.
- 2- منهج البحث في الأدب واللغة: ترجمة الدكتور محمد مندور.
- 3- البحث الأدبي: الدكتور شوقي ضيف.
- 4- مصادر الشعر الجاهلي: الدكتور ناصر الدين الأسد.
- 5- مناهج البحث في الأدب: الدكتور شكري فيصل.
- 6- مفاهيم نقدية: تأليف رينيه ويليك، ترجمة محمد عصفور.

الفصل الثاني



المنهج الاجتماعي

يعتبر المنهج الاجتماعي من المناهج الأساسية في الدراسات الأدبية والنقدية، وقد انبثق هذا المنهج - تقريباً - في حضان المنهج التاريخي، وتولد عنه، واستقى منطلقاته الأولى منه: خاصة عند هؤلاء المفكرين والنقاد الذين استوعبوا فكرة تاريخية الأدب وارتباطها بتطور المجتمعات المختلفة وتحولاتها طبقاً لاختلاف البيئات والظروف والعصور [بمعنى أن المنطلق التاريخي كان هو التأسيس الطبيعي للمنطلق الاجتماعي عبر محوري الزمان والمكان، إذ يشف المحور الزماني عن إمكانية أن يرتبط التغيير النوعي للأعمال الأدبية، بالتحويلات التي تحدث في الحقب التاريخية المختلفة، وعبر اختلافات المكان - أيضاً - إذ إن لكل مكان زمانه وتاريخه وظروفه الخاصة.]

لقد أسفر ذلك كله عن توجه عام للربط بين الأدب والمجتمع، ويمكننا القول بأن المنهج الاجتماعي هو الذي تبقى في نهاية الأمر من المنهج التاريخي، وانصبت فيه كل البحوث والدراسات التي كانت في البداية متصلة بفكرة الوعي التاريخي، إذ سرعان ما تحول هذا الوعي إلى وعي اجتماعي يرتبط بطبيعة المستويات المتعددة للمجتمع، وبفكرة الطبقات، وكذلك يرتبط بفكرة تمثيل الأدب للحياة على المستوى الجماعي، وليس على المستوى الفرديين بمعنى أنه كلما اعتبرنا الأعمال الأدبية تعبيراً عن الواقع الخارجي كان ذلك مدخلاً لربطها بتفاعلات المجتمع وأبنيته ونظمه وتحولاته باعتبار هذا المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية والفنية.

ولقد أسهمت نظرية الانعكاس التي طورتها الواقعية في تعزيز هذا التوجه الاجتماعي لدراسة الأدب، لكن المشكلة الأولى التي واجهت الدراسات التي تربط بين الأدب والمجتمع كانت تتمثل في فرضية مؤداها أنه كلما ازدهر المجتمع في نظمه السياسية والاقتصادية وفي ثقافته وإنتاجه الحضاري، نشب نوع من التوقع بأن هذا لابد أن يصحبه - أو من الطبيعي أن يصحبه - ازدهار أدبي، غير أن مراجعة تاريخ الآداب والمجتمعات المختلفة أثبتت أن هذا التلازم ليس صحيحاً، فكثير من الفترات التاريخية التي كانت تعاني فيها المجتمعات من تفكك سياسي، وتدهور اقتصادي، وتردد اجتماعي شهدت ازدهاراً وتوهجاً أدبياً وفنياً. ولعل ذلك يتضح إذا ضربنا مثلاً من تاريخنا

العربي، فالعصر العباسي الثاني الذي كان نموذجاً لتفكك الدولة وانتقال مركزية السلطة من العرب إلى الظواهر السلبية هي التي اقترنت - على وجه التحديد - بنشوء كوكبة من كبار شعراء العربية، وهم يمثلون ذروة الإبداع الشعري في الثقافة العربية.

إذن كيف يمكننا أن نقيم الربط بين تدهور المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من ناحية ازدهار مستوى الإبداع الأدبي من ناحية أخرى؟..

كيف يتم تفسير ذلك؟

لقد قدم الماركسيون ابتداءً من ماركس نفسه تصوراً واضحاً لتفادي ذلك، يطلق عليه تصور العصور الطويلة، ويرى هذا التصور أن العلاقة بين الأبنية الاجتماعية من ناحية والأبنية الثقافية والإبداعية ليس علاقة مباشرة وفورية، ولكنها تسفر عن نتائجها بإيقاع بطيء، بمعنى أنه يمكن أن يكون هناك مظاهر للقوة في المجالات المختلفة، ويكون الأدب في موقف ضعيف، لأنه لما يستوعب بعد هذه المظاهر، وعندما يبدأ في استيعابها وتمثلها، وتفاعله الداخلي للابتكار والإبداع نتيجة لها، يمكن أن تكون الدواعي التي أدت إلى هذا الازدهار قد زالت: فيبرز الازدهار على وجه الحياة في الفترات التي تكون الأسباب فيها قد اختفت، لأن العلاقة تقتضي فترات تخمر، وفترات تأثير بعيدة المدى وبطيئة الإيقاع.

لكننا لو نظرنا إلى التاريخ في جملته، نجد أن التوازي بين الجانبين يتم على مستوى العصور الطويلة، وليس على مستوى المنحنيات القصيرة جزئياً، أي إنه في المثال الذي ضربناه، يمكن أن نقول إن هناك عصر ازدهار عرب وتمثل في نشأة إمبراطورية عربية إسلامية كبرى في امتلاكها لأدوات القوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأيدولوجية على فترات متفاوتة، وأن هذه الإمبراطورية العربية الكبرى، لم تلبث أن تمخضت عنها ثقافة عربية ناضجة ومزدهرة في مجملها. هذا ما يطلق عليه "قانون العصور الطويلة" الذي يرفض قياس الأدب في علاقته بالمجتمع في فترات زمنية وجيزة، وإنما يحاول أن يمد هذا القياس على فترات زمنية طويلة، وبهذا أمكن تفسير ظواهر ارتباط الأدب بالمجتمع ارتباطاً زمنياً طردياً وليس عكسياً، بالرغم مما وجه إليه من انتقادات قبل ذلك.

كانت الماركسية والواقعية الغربية تعمل جنباً إلى جنب في تعميق الاتجاه إلى الاعتداد بالنقد الاجتماعي، وبمنظور التلازم بين البنى الاجتماعية من ناحية، والأعمال الأدبية من ناحية أخرى، وقد أسهم في ذلك ازدهار علم الاجتماع بصفة عام واتساعه بتنوعات متعددة كان من بينها علم نشأ قبل منتصف القرن العشرين أطلق عليه "علم اجتماع الأدب" أو "سوسيولوجيا الأدب"، وقد تأثر هذا العلم في نشأته بالتطورات التي حدثت في نظرية الأدب من جانب، وما حدث في مناهج علوم الاجتماع من جانب آخر، وتبلور في منتصف القرن في تيارين متوازيين ومتباعدين في الآن ذاته:

التيار الأول:

يطلق عليه علم اجتماع الظواهر الأدبية، وهو تيار تجريبي أمبيريقى، يستفيد من التقنيات التحليلية التي انتظمت في مناهج الدراسات الاجتماعية مثل الإحصائيات والبيانات، وتحليل المعلومات، وتفسير الظواهر انطلاقاً من قاعدة معلومات محددة، بينها الدارس طبقاً لمناهج دقيقة ويستخلص منها النتائج التي تسفر عنها.

وهذا التيار المبيريقى التجريبي في دراسة اجتماعية الأدب، يرى الأدب باعتباره جزءاً مكوناً من الحركة الثقافية مثله مثل بقية مظاهر الحياة الثقافية، ويرى أن تحليل الأدب من هذا المنظور يقتضي تجميع أكبر قدر من البيانات الدقيقة عن الأعمال الأدبية، فعندما نعمد إلى دراسة الرواية، فإننا ندرس الإنتاج الروائي في فترة محددة، ونضع البيانات الإحصائية الشاملة له، نجد أن الإنتاج الروائي جزء من الإنتاج السردي الذي يتمثل في القصة والقصيرة القصيرة والرواية، فتأخذ في التوصيف الكمي لهذا الإنتاج: عدد القصص والروايات التي أنتجت في هذه البيئة، وعدد الطبقات التي صدرت منها، ولو أمكن أن نصل إلى عدد القراء الذين تناولوها، والاستجابات المتعددة، ودرجة الانتشار، وما تعرضت له من عوائق، وما أثارته من ردود فعل، مستخدمين في ذلك أكبر قدر من البيانات الإحصائية الأمبيريقية حتى يمكن لنا أن ندرس الظاهرة الأدبية كأنها جزء من الظاهرة الاقتصادية، لكنه اقتصاد الثقافة بمعنى أننا نستخدم فيها مصطلحات الإنتاج والتسويق والتوزيع وغير ذلك، كل ذلك يستخلص منه نتائج بالغة الأهمية هي التي تكشف عن حركة الأدب في المجتمع ومدى انتشاره أو تقلصه وردود الفعل الناجمة عنه.

تزعّم هذه المدرسة في دراسات سوسولوجيا الأدب نقاد غربيون، من أهمهم في المدرسة الفرنسية "سكاربيه" وله كتاب في علم اجتماع الأدب، وهو يدرس كظاهرة إنتاجية ترتبط في آلياتها وفي قواعدها بقوانين السوق، ويمكن عن هذا الطريق دراسة الأعمال الأدبية من ناحية الكم في الدرجة الأولى.

أهم ما يؤخذ على هذه المدرسة، أنها تغفل الطابع النوعي للأعمال الأدبية، تستوي عندها الرواية العظيمة ذات القيمة الخالدة، مع تلك الروايات التي انتشرت لأنها تعتمد على الإثارة أو غير ذلك من الأشياء التي تؤدي إلى الانتشار. في منظور هذا الاتجاه تستوي الرواية البوليسية مع الروائع الأدبية الخالدة، لأن الأساس الذي يحكم هذه الدراسات في الدرجة الأولى يعتبر أساساً كمياً لا علاقة له بالكيف، فهو يدرس الأعمال الأدبية باعتبارها ظواهر اجتماعية، وبما أنها ظواهر اجتماعية فاللغة التي تسعفها في هذه الدراسة هي لغة الأرقام، وكل ما يتصل بالأعمال الأدبية من العوامل الخارجية مثل عدد النسخ، وعدد الطبقات، ومجموع القراء، وإذا كانت قد ترجمت إلى لغات أخرى، أو تحولت الرواية مثلاً إلى فيلم سينمائي أو أنتجت في مسلسل تلفزيوني، كل ذلك يترتب عليه اتساع للدوائر التواصلية، وتغير في الأعداد الكمية للمتقنين.

ويمكن أن نستخلص من هذا المنظور بعض المؤشرات النوعية إذا أردنا. ولكن هذا المنظور لا يمتلك إمكانية الحكم على الأعمال الأدبية، فهو لا شأن له بالقيمة أو بالكيف، وبالتالي لا يمتلك رؤية جمالية للأعمال الإبداعية.

ولكن هذا المنظور ما لبث أن تطور وارتبط بمجالات يمكن أن تتصل بشكل ما بالجانب الجمالي والنوعي للأعمال الإبداعية. وسنضرب لذلك مثلاً بدراسة تطبيقية، لأن الدراسات التطبيقية هي التي يمكن أن تكشف عن القيمة الفعلية للمناهج والآثار المترتبة عليها، وهذه الدراسة التطبيقية أجريت في الثقافة العربية وقد أجرتها منذ أونة باحة سويدية وهي "مارينا ساناغ" وقد ترجمت إلى اللغة العربية في كتاب بعنوان "حدود حرية التعبير"، هذه الدراسة توظف التقنيات التجريبية والإحصائية والتحليلية، ولكن بطريقة تختلف عن التوظيف السابق للمدرسة التجريبية في علم اجتماع الأدب، وذلك لأنها تختار ظاهرة محددة، وهي ظاهرة سقف الحرية التي يتمتع بها كتاب القصة القصيرة على وجه التحديد في مصر في فترة حكمي عبد الناصر والسادات، في ثلاثة عقود، منذ الخمسينيات وحتى بداية الثمانينيات، وهي تتخذ منظوراً من

منطلقات منهجية، حيث ترى أن الإبداع القصصي هو أكثر أشكال الإبداع ارتباطاً بحركة المجتمع، وأن هذا الإبداع - غالباً - ما يصطدم بعوائق تتمثل في الممنوعات والمحرمات الاجتماعية، نتيجة للمنظومة القيمية السائدة، وهي الممنوعات الثلاثة التقليدية:

1- الممنوعات السياسية.

2- الممنوعات الدينية.

3- الممنوعات الأخلاقية.

ترى الكاتبة - وهذا هو المنطق الثاني المنهجي للدراسة - أن الحرية قرينة الإبداع، وأن مؤشر قمع الحرية هم أهم مؤشر لتدخل المجتمع في تكيف الإنتاج الأدبي، لا عند ممارسة هذا المجتمع للحظر فحسب، ولكن حتى قبل أن يمارسه هذا الحظر لدى الكاتب ذاته، بمعنى أن الكاتب الذي يعرف بحكم خبرته الاجتماعية أن أعماله تمنع إذا اتسمت ببعض الجراة، فإنه يمارس على نفسه نوعاً من الرقابة الداخلية، فالرقابة الخارجية تنتج رقابة داخلية يمارسها الكاتب ذواتهم، لذلك فإن مؤشرات المصادرة والحظر ومنع التداول والعقوبة بالسجن هي التي يمكن أن نقيس بها درجة حرية التعبير المسموح بها في المجتمع، ودرجة حرية التعبير ذات علاقة وثيقة بالقيمة النوعية للأعمال الإبداعية، فهي ليست مؤشراً كمياً فحسب، ولكنها مؤشر نوعي يمكن قياسه.

لقد عمدت الباحثة إلى تحديد حالات الكتاب المصريين، الذي تعرضت أعمالهم الإبداعية في مجال القصة القصيرة للحظر كلياً أو جزئياً بمنع النشر أو الرقابة أو الحذف أو تعرضوا هم شخصياً للسجن نتيجة لنشرهم هذه الأعمال، أو اضطروا إلى التحايل على هذا الحظر بنشر أعمالهم والهجرة بها خارج حدود الوطن، فدرست تلك الحالات التي هاجر فيها الكتاب بأعمالهم لينشروها في أماكن أخرى تخلصاً من الرقابة المفروضة عليهم.

هنا نحد أن تطبيق "مارينا ستاغ" للمنهج الأمبيريق في سوسيولوجيا الأدب أدى إلى ربط التطور الحضاري لمجتمع من المجتمعات بالتطور الإبداعي لكتابه، وأن قياس مستوياته يكون بمدى ما يتاح لهؤلاء الكتاب من هامش حرية ضيق أو واسع في نشر أعمالهم التي تخالف منظومة القيم المستقرة في المجتمع والتي تزعم السلطات المتعددة في المجتمع أنها داعية لهذه المنظومة، والحريصة على عدم المساس بها، وهي في حقيقة الأمر كما تكشف الدراسة ترعى مصلحتها ومصلحة المؤسسات التي تنتمي إليها.

من هذا المنظور نرى أن الدراسة السوسولوجية للأدب عندما تتخذ منطلقاً مرتبطاً بجوهر الأدب وهو التعبير عن الذات الفردية والاجتماعية، يمكن لها أن تنجو من محدودية الدراسات الكمية التي لا تستطيع تقييم الظواهر طبقاً لخواصها النوعية.

صحيح أن النماذج التي أتيح للباحثة أن تدرسها، والتي تعرضت للقمع والمصادرة والنشر في الخارج، أو تعرض أصحابها للسجن والمساءلة ليست بالضرورة هي أفضل النماذج التي أبدعت في المجتمع المصري في تلك الحقبة التاريخية المحددة، وليس التعرض للمنع أو القمع قياساً للجودة، ولكنه أحد المقاييس، هذه ومن جانب آخر فإن هناك أعمالاً أخرى لا تقل عن تلك الأعمال التي صودرت جرأة وشجاعة وطموحاً إلى تحريك منظومات القيم، ولكنها تؤدي ذلك بطريقة نوعية بالغة المكر والدهاء عندما تعتمد إلى الرمز والمجاز وغير ذلك من التقنيات الفنية، دون أن تتيح لغباء القائمين على الرقابة، والمدافعين عن السلطة أن يدركوا خطورتها أو أهميتها، خاصة إذا لم يعرف أصحابها بنشاط مباشر يستثير هذه السلطات.

إن الأديب الكبير عندما يمارس عمله الثقافي في حدود إبداعاته، ويحول خطابه الثوري من مستواه المباشر في الخطابات غير الأدبية إلى مستواه الإبداعي الذي يستخدم تقنيات فنية عالية الإتقان، يستطيع أن ينجو من المؤاخذه المباشرة لهذه السلطات، ويكون خطابه أكثر قدرة وفاعلية في خلخلة منظومة القيم وتحريك المجتمع في الاتجاه الذي يتخيره.

ومع ذلك نجد أن بعض دراسات سوسولوجيا الأدب التجريبية لها أهمية بالغة في الكشف عن علاقة الإنتاج الثقافي بالمستويات متعددة الفاعلية في بنية المجتمع من سياسة، واقتصادية، واجتماعية.

أما النقد الذي يوجه لهذا الاتجاه، بالإضافة إلى أنه غير قادر على الكشف عن الخواص النوعية للأعمال الأدبية، أنه يكتفي برصد الظواهر ولا يتعمق في إمكانية تفسيرها وربطها ربطاً عميقاً، بل بقيم التوازي بين ظواهر غير متجانسة أصلاً، لأن الأدب إنتاج تخيلي وإبداعي يغير نوعياً طبيعة الحياة الخارجية بكل ما يعتمل فيها من عوامل متعددة. فإقامة التناظر بين مستويات غير متجانسة يعتبر نقطة ضعف جوهرية تعيب الدراسة السوسولوجية للأدب بالطريقة الأمبريقية أو التجريبية، الأمر الذي يجعل نتائج عملها في نهاية المطاف مجرد إضافة لمجموعات من البيانات والمعلومات التي تخدم علماء

الاجتماع ودارسيه أكثر مما تخدم نقاد الأدب والمتخصصين فيه، فالمقياس الذي اتخذ هذا الاتجاه مطعون فيه من الوجهة النقدية، لأن النقد في جوهره لا بد أن يمسك بتلك العناصر التي تقود إلى التمييز النوعي، ومع أن النقد الحديث يزعم دائماً التخلص من أحكام القيمة إلا أنه عندما يفقد صلاحيته وإمكانيته للتمييز بين المستويات المختلفة في الأعمال الإبداعية يصبح معيباً في جوهره.

من هنا وبالتوازي مع الاتجاه السابق وربما قبله بفترات تاريخية، بدأت تنشأ مدرسة أخرى في سوسيولوجيا الأدب، وهي التي يطلق عليها المدرسة الجدلية وهي أكثر خضوعاً للمفاهيم الفلسفية منها للمفاهيم الاجتماعية.

التيار الثاني:

ويطلق عليه المدرسة الجدلية، وهي تعود إلى هيجل نفسه ورأيه الذي بلوره فيما بعد ماركس في العلاقة بين البنى التحتية والبنى الفوقية في الإنتاج الأدبي والإنتاج الثقافي، وهذه العلاقة متبادلة ومتفاعلة مما يجعلها علاقة جدلية.

المنظر الأساسي لهذا الاتجاه هو "جورج لوكاش" فيلسوف الواقعية الأكبر في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك عندما درس وحلل العلاقة بين الأدب والمجتمع باعتبار الأدب انعكاساً وتمثيلاً للحياة، وقدم بعض اندراسات الأخرى التي تعد إسهاماً مبكراً في نوع آخر من الدراسات السوسيولوجية للأدب، وهو الذي يسمى "سوسيولوجيا الأجناس الأدبية" وهي التي تربط بين نشأة الجنس الأدبي وازدهاره وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع من المجتمعات، فكانت كتاباته عن طبيعة ونشأة الرواية المقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية، وصعود البرجوازية الغربية هي التطبيق العملي لهذا المنظر.

ظلت أفكار لوكاش تتصف بطابعها الفلسفي والميتافيزيقي، لأنها تنبثق من تصور أساسي، مفهومه أن دراسة الظواهر الأدبية لا بد وأن تكون دراسة شاملة، لا تقف عند الجزئيات، وإنما تدرس الظاهرة في كليتها وشمولها.

الأدب - إذن - يصبح من المنظومة الثقافية، ويصبح ارتباطه بها عضوياً، والمنظومة الثقافية هي التعبير الفكري والفلسفي عن حركة المجتمع ذاته.

جاء بعد لوكاش أكبر منظر لهذا لتيار من سوسيولوجيا الأدب، وهو "لوسيان جولدمان". ينطلق جولدمان من مبادئ لوكاش ويطورها، ويصطنع

جملة من المصطلحات الجديدة، والتقنيات الإجرائية التحليلية المبتكرة التي جعلت الاتجاه الذي تبناه يطلق عليه (علم اجتماع الإبداع الأدبي) وهو يهتم في الدرجة الأولى بالجانب الكيفي. وليس الجانب الكمي الذي كانت تهتم به مدرسة "سكارييه".

ينطلق جولدمان من مجموعة من المبادئ العميقة والمتشابكة التي يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

أولاً: يرى جولدمان أن الأعمال الأدبية لا تعبر عن الأفراد، وإنما تعبر عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة، بمعنى أن الأديب وإن كان فرداً لكنه يختزل ضمير الجماعة، حيث تتجلى لديه رؤية الجماعة التي تنتمي إليها، هذه النقطة الأولى في نظرة جولدمان، فالأديب ليس إنتاجاً فردياً، ولا نعامله باعتباره تعبيراً عن وجهة نظر شخصية، لأن وجهة النظر هذه تتجسد فيها عمليات الوعي الجماعي والضمير الجماعي، وأكثر من ذلك، كلما كان الأديب على درجة عالية من القوة والعمق، كان تجسيده للمنظور الجماعي أوضح وأقوى.

كأننا هنا نميز بين مستويات الأدباء على اعتبار قدراتهم في تمثيل الضمير الجماعي، فهناك أدباء يمتلكون وعياً مزيفاً، فيعبرون عن منظورات شخصية، وغالباً ما يسقط إنتاجهم في الإهمال والنسيان، لأن القارئ لا يجد فيه ذاته وأحلامه ووعيه بالأشياء، وهناك أدباء آخرون يمتلكون القدرة على التمثيل الصحيح للوعي الصادق والحقيقي والممكن، لأن هناك درجات من الوعي الحقيقي المنجز بالفعل، والوعي الممكن المستشرف للمستقبل والمكتشف لآفاقه.

ثانياً: إن الأعمال الأدبية ذاتها تتميز بأبنية دلالية كلية، وهذه الأبنية الدلالية تختلف من عمل لآخر، وهو ما يفهم من العمل في إجماله، ويمكن أن نجد تناظراً بين بنية الوعي الجماعي من ناحية والبنية الدلالية من ناحية أخرى كأنهما حلقتان يمكن لهما الالتحام، بمعنى أننا في قراءتنا للأعمال الأدبية، فإننا ننحو إلى إقامة بنية دلالية كلية، تتعدل باستمرار كلما عبرنا من جزء إلى آخر في العمل الإبداعي، وعندما ننتهي من القراءة تتكون لنا صورة عن بنيته الدلالية الكلية، وهذه الصورة هي المقابل المفهومي والمقابل الفكري للوعي والضمير الاجتماعيين المتبلورين لدى الأديب.

ثالثاً: إن نقطة الاتصال بين البنية الدلالية، والوعي الجماعي الطبقي، هي أهم الحلقات عند جولدمان والتي يطلق عليها مصطلح "رؤية العالم"، فكل عمل

أدبي يتضمن رؤية للعالم، ليس العمل الأدبي المنفرد فحسب، لكن الإنتاج الكلي للأديب، ولعصر معين وعن طريق رؤية العالم يمكننا أن نرى بشكل صاف كيفية تبلور العلاقة الخلاقة بين الأعمال الإبداعية من ناحية والوقائع الاجتماعية الخارجية من ناحية ثانية.

انطلاقاً من هذا المنظور في علم اجتماع الإبداع الأدبي، أسس جولدمان منهجه في سوسولوجيا الأدب، والذي يطلق عليه المنهج التوليدي كما نسميه في المشرق والمنهج التكويني في المغرب العربي. أجرى جولدمان عدداً من الدراسات التي ترتبط - أيضاً - بعلم اجتماع الأجناس الأدبية كما فعل لوكاش من قبله، وقد أصدر كتابه الشهير "من أجل تحليل سوسولوجي للرواية"، درس فيه نشأة الرواية الغربية، وكيفية تحولاتها المختلفة في مراحلها المتعددة تعبيراً عن رؤية البورجوازية الغربية للعالم.

الإضافة الحقيقية لهذا المنهج هي أنه لم يغفل الجانب الكيفي في دراسته للأعمال الأدبية، بل اعتمد على وجه التحديد على هذا الجانب القيمي الكيفي، لشرح مدى العلاقة بين الأعمال الإبداعية والوعي الجماعي، عندما جعل مستوى الأديب يتمثل في قدرته على صياغة رؤية للعالم، هي التي تعبر عن الوعي الجماعي المتحقق والممكن في الآن ذاته، وعندئذ لا يمكن أن يستوي عمل روائي عظيم بعمل بوليسي مثلاً، لأن الرؤية الفقيرة والمحدودة والآلية لهذا العمل البوليسي تجعله مجرد أداة للتسلية والإثارة، ولكنه لا يمكن أن يحمل رؤية للعالم بكل ما يملكه هذا المصطلح من خصوبة وتعقد وتشابك. لكن تظل الإشكالية الأساسية لدى هذا المنهج متمثلة في أنه يقيم تناظراً بين ظواهر غير متجانسة، الحياة الاجتماعية الخارجية من ناحية، والأعمال الأدبية التحليلية اللغوية من ناحية ثانية، ما زالت الفجوة بين المنطقتين فادحة وقائمة، وهذه تعتبر أكبر نقطة ضعف في التيارين السابقين من سوسولوجيا الأدب والتيار الكمي عند سكاربيه، والتيار الكيفي عند لوسيان جولدمان ولوكاش. صحيح أن منهج جولدمان حاول إقامة التجانس وتضييق الفجوة بين الأدب والحياة، خاصة عبر اللغة ولكنها ما زالت قائمة إلى حد ما.

نشير أيضاً إلى بعض الدراسات التطبيقية في الثقافة العربية التي استخدمت منهج التوليدية في تحليل ظواهر الأدب العربي، وهي دراسة شيقة وطريفة قام بها على وجه التحديد عالم اجتماع عربي وليس ناقداً أدبياً وهو التونسي الطاهر لبيب، وقد درس الطاهر لبيب رسالته للدكتوراه في أوروبا

على يد جولدمان وكان أستاذه المشرف، درس ظاهرة في غاية الطرافة، وهي ظاهرة الغزل العذري في العصر الأموي، درسها من ناحية تعبيرها عن رؤية العالم لفئة اجتماعية وهم الشعراء العذريون، حاول أن يقيم علاقة بين ظاهرة متميزة في تاريخ الشعر العربي في الفترة الأموية من ناحية، وطبيعة الأبنية الاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء الشعراء من ناحية أخرى، ومدى نجاحهم في تقديم رؤية للعالم تعبر عن واقعهم الاجتماعي.

وهناك دراسة أخرى لشاعر وناقد مغربي وهو محمد بنيس، حاول فيها أن يربط بين الإبداع الشعري العربي المعاصر والظواهر السوسولوجية في المغرب العربي على وجه التحديد، وهي دراسة تتميز بالتماسك المنهجي.

وهناك دراسات أخرى تطبيقية كثيرة قدمها بعض النقاد على الأدب العربي، استخدم فيها مبادئ البنيوية التوليدية، وكانت هذه محاولة لالتقاط العلاقة الدقيقة والحساسة ما بين الأعمال الإبداعية، والتيار الاجتماعي ومدى قدرتها على بلورة رؤية العالم.

ولكن يظل مصطلح رؤية العالم في نهاية الأمر من أهم المصطلحات التي تعين الناقد على إجراء هذه المقاربة من منظور سوسولوجي أدبي.

على أن التطور الذي حدث في المناهج النقدية الحديثة في العقود الأخيرة منذ السبعينيات قد أسفر عن تولد تيار جديد في سوسولوجيا الأدب يختلف عن التيار الكمي والتيار والكيفي السابقين، هذا التطور أفاد من معطيات علم جديد نشأ في العقود الأخيرة وهو "علم النص" وهذا التيار الجديد يطلق عليه علم الاجتماع النصي، الذي يفيد من معطيات علمي النص والسوسولوجيا على وجه التحديد لكي يجعل المقاربة السوسولوجية أكثر ارتباطاً بالوسيط الحقيقي الفعلي بين الأدب والحياة، هذا الوسيط الفعلي هو اللغة، لأن اللغة هي مادة الأدب، ومادة التواصل في الحياة، فاللغة - إذن - من منظور علم اجتماع النص الأدبي هي المرشحة لأن تكون الجسر الحقيقي الذي يمعن التحليل النقدي فيه، فيستطيع أن يربط بين الأدب من ناحية والحياة من ناحية أخرى عبر منطقة متجانسة.

فاتخاذ اللغة منطقة للبحث النقدي في علم اجتماع النص الأدبي هو الوسيلة لتفادي الهوة النوعية بين الظواهر المختلفة.

الخطاب الأدبي - إذن - شديد التجانس والقرب من خطاب الحياة العامة، ويمكن لتحليل العلاقة بينهما أن يكون هو المدخل الملائم الذي يجمع

الظاهرتين، ويستفادى الطابع المفاهيمي الفلسفي للمناهج والتيارات السابقة في سوسولوجيا الأدب، لأن هذه المناهج السابقة كانت تقتصر في دراسة الأدب على المفاهيم والأفكار المنبثقة عنها، حتى إن مصطلح رؤية العالم في نهاية الأمر هو تصور فلسفي وذهني وفكري، ولكنه ليس تصوراً تعبيرياً أو لغوياً، وليس مرتبطاً بجذور الظاهرة الأدبية ذاتها.

علم اجتماع النص الأدبي له إرهاصات كثيرة وتاريخ عريض هو الذي يمثل الحلقة الأخيرة في سوسولوجيا الأدب التي أفادت من تطور المناهج النقدية المحدثّة، والبنوية، والسيميولوجية والنصية، لكي تعثر على الوساطة الملائكية التي يمكن عن طريقها الدراسة العلمية الخصبة والجادة للعلاقة بين الأدب والمجتمع، الذي يمثل هذا التيار ناقد يسمى "بيير زيما"، وله كتاب بعنوان "النقد الاجتماعي"، استطاع من خلاله أن يبلور الاتجاهات التي سبقتة، ويعرض أهم الصعوبات والانتقادات التي وجهت إليها، ويقترح تصوراً أكثر نضجاً وتطوراً في سوسولوجيا الأدب.

مراجع النقد الاجتماعي

- 1 - التحليل الاجتماعي للأدب: تأليف سيد ياسين - دار المعارف.
- 2 - منهج الواقعية في الإبداع الأدبي: د. صلاح فضل - دار المعارف.
- 3 - البنيوية التكوينية: نوسيان جولدمان - مترجم.
- 4 - النقد الاجتماعي: بيير زيما - ترجمة عائدة لطفي.

الفصل الثالث

المنهج النفسي الأنثربولوجي

إن اعتبار المنهج النفسي والأنثربولوجي من قبيل منظومة المناهج التاريخية، إنما يتم بشكل تقريبي - لأننا كما سنرى فيما بعد سنتين أنهما امتدا بظلهما؛ وتجاوزا منطقة البحث التاريخي إلى منطقة البنيوية وما بعدها، فامتزجا بها وأصبحا جزءاً مكوناً من تجلياتها المتعددة، وللمنهج النفسي في النقد الأدبي جذور بعيدة يمكن أن نشير إليها باقتضاب، لكنها تتمثل في تلك المراحل التي لم تكن قد تبلورت فيها بشكل منهجي طرائق النقد دائماً كانت تتبثق باعتبارها ملاحظات ترد في بعض ظواهر الإبداع، وتفسر قدرأ من وظائفه في ضوء عدد من الملاحظات التقنية أو الفطرية، يمكننا - مثلاً - أن نجد في نظريات أفلاطون عن أثر الشعراء على منظومات القيم والحياة في مدينته الفاضلة، بداية لهذا الالتفات العميق للجانب النفسي في بحث فلسفة الأدب ووظائفه، كما يمكننا أن نلاحظ أن "نظرية التطهير" ذاتها عند "أرسطو" إنما تربط الإبداع الأدبي بوظائفه النفسية، وإذا استعرضنا بعض اللوحات العميقة، والنفادة التي نعثر عليها في طوايا النقد العربي القديم سنجد أن كثيراً منها ردد مقولات متشابهة عن علاقات الشعر بنفس المبدع، وتعبيره عنها، وعن الروابط المتشابهة والمعقدة التي يمكن أن يقيمها الناقد بين النصوص الأدبية من جانب، وبين بواعثها وأهدافها، ووظائفها النفسية لدى المبدع ولدى المتلقي من جانب آخر... كل ذلك يمكننا أن نعثر على بلورة منظمة، وواضحة له في كتاب رائد من رواد النقد العربي الحديث وهو الأستاذ "محمد خلف الله أحمد" الذي نشره بعنوان "من الوجهة النفسية في بحث الأدب ونقده".

برغم ذلك، فالمنهج النفسي بدأ بشكل علمي منظم مع بداية علم النفس ذاته منذ مائة عام على وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلفات

"فرويد" في التحليل النفسي وتأسيسه لعلم النفس، استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر الإبداع في الأدب والفن، كتجليات للظواهر النفسية، من هنا يمكن أن نعتبر ما قبل "فرويد" من قبيل الملاحظات العامة التي لا تؤسس لمنهج نفسي بآدر ما تعتبر إرهاباً وتوطئة له، لكن المنهج ذاته يبدأ مع تكون علم النفس، أو علم التحليل النفسي عند "سيجموند فرويد".

كانت النقطة التي انطلق منها "فرويد" في هذا الصدد تتمثل في تمييزه بين الشعور واللاشعور، بين الوعي واللاوعي، بين مستويات الحياة الباطنية واعتبار اللاوعي أو اللاشعور هو المخزن الخلفي غير الظاهر للشخصية الإنسانية، واعتباره متضمناً للعوامل الفعالة في السلوك وفي الإبداع وفي الإنتاج.

وكان اهتمامه منصباً - في الدرجة الأولى - على تفسير الأحلام باعتبارها النافذة التي يطل منها اللاشعور، وباعتباره الطريقة التي تعبر بها الشخصية عن ذاتها، وتلتف حول قوانين الكبت والمنع الاجتماعيين، وكان التناظر بين الأحلام من ناحية والفن والأدب من ناحية ثانية مغرياً لاعتبار الفن مظهراً آخر من مظاهر تجلي العوامل الخفية في الشخصية الإنسانية.

اعتبر "فرويد" الأدب والفن تعبيراً عن اللاوعي الفردي، ومجلى تظهر فيه تفاعلات الذات وصراعاتها الداخلية، وذلك عندما حدد خصائص العلم بمجموعة من الأوصاف، في مقدمتها: التكثيف.. والإزاحة، والرمز، بمعنى أن الحلم يعمد إلى الظواهر المبسوطة فيوجزها بإسقاط تفاصيلها الكثيرة، ويكتفها بطريقة بالغة، ثم يقوم بنقلها من مجال حسي إلى مجال حسي آخر، ويستخدم في ذلك رموزاً متعددة، وسرعان ما أدرك "فرويد" وتلاميذه أن هذه القوانين ذاتها المتمثلة في التكثيف والإزاحة والرمز، هي التي تحكم أيضاً طبيعة الأعمال الفنية والأدبية على وجه الخصوص.

لجأ "فرويد" - كما هو معروف - إلى تاريخ الأدب يستمد منه كثيراً من مقولاته ومصطلحاته في التحليل النفسي، فسمى بعض ظواهر العقد النفسية - مثلاً - بأسماء شخصيات أدبية، مثل عقدة "أوديب"، وعقدة "ألكترا"... وغيرها. كما لجأ إلى تحليل بعض اللوحات الفنية التشكيلية، وبعض الأعمال الأدبية والشعرية، وبعض الرموز الأخرى للتدليل على نظرياته في التحليل النفسي، وفي العلاقة بين الشعور واللاشعور وفي القوانين التي تحكم هذه العلاقة وهي قوانين التداعي وغيرها، كان "فرويد" يعمل في منطقة التحليل النفسي، ويهتم في

الدرجة الأولى بالظواهر المرضية مثل العصاب... وانفصام الشخصية وغيرها، وكان ربط الإبداع الأدبي بمثل هذه الظواهر المرضية إيذاناً باعتبار المبدع إحدى حالات الشذوذ التي يمكن عن طريق تحليلها الكشف عن الحالات السوية الأخرى، ولم يكن ذلك يقلق منهج "فرويد" ولا تلاميذه في التحليل، لأن نقطة ارتكازهم، وبؤرة اهتمامهم تتمثل في الدرجة الأولى في الكشف عن القوانين الخفية والمضمرة التي تعمل بها الذات الإنسانية.. الكشف عن طبقات الشخصية.. الكشف عن حالاتها المختلفة وتجلياتها والتوصل بكل ذلك لعلاج ما يصيبها من أمراض أو حالات شاذة.

سنجد أننا لو عدنا للنموذج التوصيلي الذي يفهم العملية الأدبية باعتبارها مجموعة متشابكة بين ثلاثة أطراف، المرسل.. والمرسل إليه.. والرسالة. يمكننا أن نعتبر أن التحليل النفسي للأدب انطلق ابتداء من العناية بالمرسل أي المبدع الأديب ذاته، والربط بين إنتاجه من ناحية، وبين تاريخه الشخصي الذي يتمثل في مجموعة الخبرات المتراكمة لديه منذ سن الطفولة الباكر، وكما هو معروف في مناهج التحليل النفسي فإن أشد الفترات حسماً في توجيه سلوك الإنسان في المستقبل طيلة عمره هي سنوات الطفولة.. السنوات الأولى في حياته، حيث تتكون استجاباته، ومشاعره، وتواتراته، وتتكون طريقة نظرتة للأشياء، واستراتيجية مواقفه في الحياة، ويتكون ما هو أعمق من ذلك تجذراً في داخله، وهو تلك المناطق الحساسة التي تظل تحكم فيما بعد منظومة رموزه واستجاباته العاطفية والوجدانية، فإذا ما عانى شيئاً من الحرمان في هذه الطفولة المبكرة، أو لقي بعض التجارب القاسية كانت هي المشكلة لأهم ملامح طريقته في السلوك وفي التصور وفي بناء الرموز، فإذا ما كان هذا الإنسان فيما بعد مبدعاً أو شاعراً أصبح محكوماً بجملة تجاربه الطفولية تلك، وأصبحت هي التي تمثل الجذر الأساسي لإبداعه والمرجعية الحقيقية لما يستخدمه من رموز، ولما يوظفه بعد ذلك من أدوات الإبداع الأدبي.. يرتبط بالنظر إلى العلاقة بين العالم الباطني وإلى الإبداع الأدبي، يرتبط بذلك تيار آخر يتجلى في الدراسات النفسية، يجعل التفوق في الإبداع نظيراً لنوع من العبقرية ثم يقرن هذه العبقرية بلون من ألوان الجنون، فذروة التفوق في الإبداع توازي ذروة الشذوذ عن النسق السوي للحياة النفسية.. هناك عدد كبير من الدراسات تقرن بين العبقرية والجنون وترى أن الإبداع الأدبي في جوهره إنما هو مظهر من مظاهر وصول

التوتر في نفس المبدع إلى ذروته، وعدم قدرته على التكيف مع الجماعة بعد ذلك مما يتجلى في الخلق الفني والأدبي...

دراسات العبقرية والجنون تسهم في هذا الربط العميق والخطر بين حالات الشذوذ الإبداعي من ناحية، وسلوك المجانين من ناحية ثانية... لكنها أسهمت إلى حد كبير في نشأة فرع من فروع الدراسات النفسية والأدبية هو الذي يسمى "علم نفس الإبداع" وعلم نفس الإبداع لا يعتمد على الفروض النظرية البحتة، ولا ينطلق من مقولات تصورية خالصة، وإنما يحاول دائماً أن يضع هذه الفروض موضع الاختبار والتجربة، وذلك عن طريق دراسة حالات الإبداع الخاصة المرتبطة بالأجناس الأدبية المحددة، مثل أن تكون مرتبطة بالشعر، أو مرتبطة بالرواية أو القصة، أو مرتبطة بالمسرح دراسة "إيكلينيكة" ميدانية، هذه الدراسة الميدانية تتمثل في اعتبار المبدعين حالات يتم إخضاعها للتحليل عن طريق مجموعة من الاختبارات، والأسئلة المصممة بطريقة منهجية وعلمية واستخلاص النتائج الخاصة عنها، كما يتم إخضاع مسودات الأعمال الإبداعية ذاتها لهذا النوع من التحليل أيضاً، لأن هذه المسودات تكشف عن حالات الاختيار والتصويب وأسبابها العميقة، وعن كيفية نشوء مسار التعبير لدى المبدع والتعديلات التي يدخلها عليه، ونوع هذه التعديلات في الاستجابة للفكرة العميقة لديه، أو التعبير الأوضح عما يريد التعبير عنه من عواطف وحساسيات، أو في البلورة المتميزة لعدد من رموزه وكلماته الأخيرة المفضلة.. بمعنى أن تحليل هذه المسودات يضع أمام المحلل النفسي مادة أولية يستطيع أن يدرس عبرها كيفية تفاعل الذات مع اللغة، وعمليات التصويب وأسبابها العميقة ونتائجها في إشباع النموذج الذي يريد المبدع أن ينشئه، لأن المنظور النفسي يفترض أن عملية الإبداع ذاتها إنما هي إشباع لحاجة نفسية عميقة، وأن التعديلات التي تطرأ على النصوص الأدبية إنما تمضي في سبيل الاقتراب من نموذج هذا الإشباع.

لدينا في الثقافة العربية مدرسة نشأت منذ منتصف القرن الماضي، وأصبح لها إنجازها المتفرد في مجال علم نفس الإبداع. أسسها عالم جليل هو "د. مصطفى سويف" الذي يعتبر كتابه "الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة" بمثابة نقطة الارتكاز الجوهرية لأعمال هذه المدرسة التي لم تلبث أن تشعبت بعد ذلك لدى تلاميذه فكتبوا بحوثهم ودراساتهم الخلاقة عن بقية الأجناس الأدبية، كتب د. "شاكر عبد الحميد" "الأسس النفسية للإبداع الفني في

القصة القصيرة"، وكتبت "د. سامية الملة" "الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرح" وتكونت في الثقافة العربية نواة مدرسة لعلم نفس الإبداع.

المشكلة الجوهرية التي تواجهنا عند النظر إلى هذا الإنتاج تتمثل في شقين:

الشق الأول: إن بؤرة الاهتمام في هذه الدراسات تتركز حول حقائق النفس الإنسانية، وأن الإبداع والأدب يوصفان كأمتلة ونماذج للكشف عن هذه الحقائق، بمعنى أنه كما كان اللغويون القدماء يستخدمون الشعر — مثلاً — كشواهد على قواعدهم النحوية، فإن علماء النفس المحدثين يستخدمون الشعر وغيره من أشكال الأدب كشواهد على مبادئهم، وقواعدهم النفسية، فتصبح دراسة الأدب ونقده مجرد هامش موضح لمنظور علمي يرتبط بدراسة النفس الإنسانية بتجلياتها المختلفة، ومجرد شاهد على بعض الحالات التي توصف بأنها شاذة.. تهميش الأدب واعتباره مظهراً للشذوذ باستخدام مصطلحات علم النفس يعد النتيجة الأولى لتوظيف هذا المنهج... الشق الثاني يمثل إشكالية أخرى في هذا التيار من الدراسات النفسية للأدب ونقده، تتمثل في أن أدوات التحليل والإجراءات التي تستخدم المنظور النفسي غالباً ما تنجح في إضاءة قطع متناثرة، وأجزاء يسيرة من النص الأدبي... هي تلك القطع والأجزاء التي تتجلى فيها عمليات الإسقاط، أو الإشارات للحالات النفسية المتعددة، أو بعض الرموز المرتبطة بالتاريخ الباطني لشخصية المبدع، مما لا يمثل في جملته إلا نسبة ضئيلة من العمل الأدبي ذاته. فأقصى ما يصل إليه التحليل النفسي هو أن يشرح بعض الاختبارات التصويرية، أو يفسر بعض الإشارات الأدبية، أما أن يلقى بضوئه على جملة النص بأكمله فهذا ما لا يحدث في كل الحالات... معنى ذلك أن قصارى ما يبلغه المنهج النفسي لتحليل الأعمال الأدبية إنما هو إضاءة بعض المناطق الخاصة في العمل الأدبي تاركاً بقية المناطق — وهي الغالبية — في الظل، لأن فهمها وتفسيرها لا ينتمي إلى هذا المجال، ولا تفلح معها أدواته.

أما النتيجة الأخيرة المرتبطة بقصور منهج التحليل النفسي تتمثل في عدم إمكانية عقد علاقة سببية بين العالم النفسي من ناحية، والإبداع ذاته من ناحية أخرى، بمعنى أننا لا نستطيع أن نقول إنه كلما تحقق هذا العالم النفسي أنتج لدينا ذلك المظهر الإبداعي المتمثل في الأعمال الأدبية. إن عدم إمكانية الربط السببي بين الظواهر يجعل حصرها في النطاق النفسي نوعاً من التعسف غير المبرر، بمعنى أن آلافاً من الناس يتعرضون لحالات التوتر الداخلي الشديد

لحالات الكبت.. لحالات العصاب إلخ... لكن عدداً قليلاً منهم هم الذين يبدعون أعمالاً أدبية، الأمر الذي يجعل الربط بين هذين الطرفين ربطاً غير علمي وغير سبب ويجعل شرح الحالات النفسية تفسيراً غير كافٍ للظواهر الإبداعية وغير مقنع، كذلك نجد أن التحليل النفسي إذا كان ناجحاً في إضاءة بعض الأجزاء، وتفسير كيفية نشأتها، وتولدها، فإنه لا يستطيع بحال أن يمدنا بأدوات تعيننا في تمثيل قيمتها الموضوعية والجمالية، بمعنى أن تجذر النص في نفس المبدع لا يكشف عن مستواه الفني، لأنه يرتبط بسؤال آخر: كيف تولد هذا العمل؟ بغض النظر عن قيمته في ذاته.

فالتحليلات النفسية يمكن أن تمارس بنجاح على الأعمال الأدبية من الدرجة الثانية والثالثة، ولذلك لا تقدم لنا معياراً — أو لنقل — عناصر صالحة للدخول في حكم قيمة، حتى ولو كان هذا الحكم منبثقاً من العمل الأدبي ذاته، بمعنى أنها لا تطرح علينا سؤال القيمة الموضوعية، مكتفية بالاستغراق في سؤال القيمة الذاتية من هنا سنجد أن القصيدة يمكن أن تكون لها أهمية بالغة جداً في الكشف عن حياة المبدع، أو منعطف خطير في تصوراته، لكن ذلك لا يسعفنا بحال في الكشف عن مستوى القصيدة ذاتها إذا كانت بهذا الاعتبار تستحق البقاء أم لا. هذا ناجم من أن بؤرة التركيز في الدراسات النفسية لا تتمثل في النص، وإنما تتمثل في المرسل وعلاقة النص به، ربما كان بوسع دراسات التلقي من منظور نفسي أن تعوض قليلاً هذا الجانب، لأن النص إذا كان بالغ التأثير لدى عدد أكبر من المتلقين في ظروف متعددة فلا بد أن له قيمة موضوعية تتجاوز قيمته الذاتية بالنسبة للمبدع هي التي تضمن له القيام بهذه الوظيفة، فنحن إذا ما أعطينا الجانب النفسي أهمية — كي لا يقتصر فحسب على منطقة التولد والإبداع (علاقة النص بالمرسل) — وجعلناها تشمل من الوجهة النفسية أيضاً تأثير النص في المتلقي فنجد أن هذا التأثير عندما يتم رصده بطريقة موضوعية في شرائح متعددة من المتلقين وفي ظروف متفاوتة يمكن أن يكون مؤشراً واضحاً على القيمة الموضوعية للنص الأدبي، وعلى مستواه الجمالي في الدرجة الأولى.

لم تلبث مدارس علم النفس أن تطورت، وتشعبت، ونشأت إلى جانب تيارات التحليل النفسي عند "فرويد" وتلاميذه اتجاهات أخرى كان لها أثرها البالغ أيضاً في اكتشاف جوانب غير فردية لربط العالم الداخلي بالإبداع الأدبي.. ومن أهم هذه التيارات مدرسة "يونج" في "علم النفس الجماعي". كان

"كارل يونج" تلميذاً ورفيقاً لفرويد لكنه لم يلبث أن استقل عنه وأسس مفاهيمه عن "اللاشعور الجماعي" متجاوزاً بذلك الطابع الفردي الذي اقتصر عليه دراسات "فرويد".

يرى "يونغ" أن الشخصية الإنسانية لا تقتصر حدودها على التجربة الفريدة، وإنما تمتد لتستوعب التجربة الإنسانية للجماعة للموعدة في القدم، وأن هذه الشخصية تحتفظ في قراراتها بالنماذج، والأنماط العليا التي تختبر في الثقافة الإنسانية عبر الأجيال المختلفة، هذه النماذج، والأنماط العليا تدخل في تركيب طريقة التخيل الإنساني، وطريقة التصور، وطريقة الشعور، وفي منظومة القيم، والفاعلية النفسية للإنسان.. كان لاتجاهات "يونغ" ونظرياته في الأنماط البشرية، والنماذج العليا أثر كبير في تطوير الدراسات المفسرة للظواهر الأدبية، والمرتبطة بالنقد الأدبي.. يمكن أن نعتبر الناقد الكندي الكبير "نورثروب فراي" من أهم النقاد الذين وظفوا نظريات "يونغ" في علم النفس الجماعي في تحليل الأدب. عرض "فراي" لمبادئ نظريته في كتابه الكبير الذي ترجم إلى اللغة العربية مؤخراً "تشریح النقد" إمكانية تفسير الأدب العالمي، خاصة في تجلياته في الثقافة الغربية بلغاتها المتعددة، وهناك دراسات أخرى إضافة إلى ذلك تقدم إمكانية تفسير الثقافات الشرقية ذاتها على أساس عدد من الأساطير الكبرى الغارقة في ميثولوجيا الثقافة القديمة ترتبط بنماذج "يونغ" العليا، باعتبار أن هذه النماذج تمثل الأبنية العميقة التي تحكم الإبداع الفني والأدبي بصفة أساسية، مبدعاً، أو غير ذلك ليرتبط بالتصورات الجماعية مما يدخل في مجال الأنثروبولوجيا، وتلك هي نقطة الجمع بين علم النفس والأنثروبولوجيا في تيار واحد لأن المنطلقات كانت في تلك الحالتين إما نظريات التحليل النفسي عند "فرويد" أو نظريات اللاشعور الجماعي عند "يونغ".

يضاف إلى ذلك تيار نفسي آخر كانت له أهمية خاصة في تحليل تجليات الإبداع الأدبي وهو المتمثل في مدرسة "أدلر" الرمزية، وتلك المدرسة التي تفرق بين الأحلام والرموز الأدبية بشكل باهر.

لكن النقلة التي حدثت في منهج النقد المعتمد على المقولات النفسية بدأت منذ منتصف القرن، ومع بداية المناهج البنيوية على وجه التحديد، لأن أحد المؤسسين للتفكير البنيوي كان "جان بياجيه" إذ إنه واحد من أعلام المفكرين في القرن العشرين الذين اهتموا بعلم نفس الطفولة، وبكيفية تكون اللغة عند الأطفال

وكان من أهم من قدموا الأساس للبنىوية التوليدية في دراسته عن علم نفس الأطفال، وكيفية تكون اللغة لديهم.

لكن الذي أعلن الربط عبر اللغة بين علم النفس والأدب في منهج شديد التماسك كان هو العالم النفسي الآخر الفرنسي "لاكان" إذ إنه يعتبر المؤسس لعلم النفس البنيوي، فعلى يديه تطورت مناهج التحليل النفسي للأدب بشكل جذري.. المقولة الرئيسية التي نجدها عند "لاكان"؛ والتي مكنته من إحداث هذه النقلة النوعية في الدراسات النفسية تتمثل على وجه التحديد في اعتباره اللاشعور مَبِيناً بطريقة لغوية بمعنى أن البنية التي تحكم اللاوعي هي بنية لغوية في صلبها تعتمد على التداوعي وعلى غير ذلك من قوانين اللغة التي أسسها "سوسير" في بداية القرن. وطبقاً لذلك إذا كانت بنية اللاوعي بنية لغوية، فإن الأدب يعتبر أقرب التجليات اللغوية إلى تمثيل هذا اللاوعي، ويصبح تحليل الأدب من منظور نفسي مروراً بالتوازي بين بنية الوعي وبنية اللغة هو المدخل الصحيح لمنهج النقد النفسي. نظرية "لاكان" مركبة ومعقدة وبالغة الخصوبة، ومن أهم من قام بعرضها وكتابتها إلى جانب كتابات لاكان نفسه عالم عربي مصري هو "د. مصطفى صفوان" وتعد كتابات "مصطفى صفوان" بالغة الأهمية بالفرنسية، وبعضها مترجم إلى اللغة العربية في هذا الصدد.

سنجد بعد هذه النقلة أن دراسات علم النفس ذاتها قد تشعبت في ميادين كثيرة تجريبية، ووظيفية، وأخذت تمتد لتشمل دراسة "الذاكرة" وكيفية عملها، والقوانين التي تحكم قيامها بوظيفتها، وأصبحت هذه الدراسات المرتبطة بوظائف الذاكرة، والمعتمدة على جانب فسيولوجي يتمثل في بحث كيفية قيام المخ بوظائفه، وعلى جانب معلمي يرتبط بالتجارب التي تجري على عينات مختارة لاختبار كيفية تلقيها وماذا تحتفظ به، والقوانين الفاعلة في حركة الذاكرة، كل ذلك أخذ يصب في فرع جديد يسمى "الذكاء الاصطناعي" من فروع علم النفس التجريبي.. دراسات "الذكاء الاصطناعي" أصبحت ذات أهمية بالغة عندما تطلق على النصوص الأدبية، لأنها تعتمد على مؤشرات علمية متنامية ودقيقة تشرح لنا في الدرجة الأولى لا كيفية إنشاء الأعمال الأدبية، وإنما كيفية تلقيها والاستجابة لها وفهمها، هنا تلتئم دائرة الدراسات النفسية بحيث لم تعد تقتصر على المرسل، ولم تعد تتجلى في بعض الشذرات المتفرقة في النص الأدبي، وإنما أخذت تصب بدورها في المتلقي، وتشرح كيفية استجابته الذهنية والتخييلية والحسية للأعمال الأدبية، ونوع هذه الاستجابة

من عوامل فهمها، وشروط هذا الفهم، ومستويات تلقيها المختلفة، وما يدخل ذلك من عوامل في تحديدها.

أصبحت إذن الدراسات النفسية لا تقتصر على الإبداع، ولا تتوقف عند بعض مظاهر النص، وإنما تشمل أيضاً عمليات التلقي والاستجابة، والفهم وبناء المتخيل مما يجعل الدائرة التواصلية تكتمل بهذا اللون من الدراسات النفسية... سنجد أن المنظور النفسي قد أصبح داخلاً بشكل قوي في التحليلات الأدبية، مستخدماً لا تلك المناهج التاريخية السابقة على المنظومة البنيوية، وإنما بعض آليات التفكير التي ترتبت على البنيوية، وبعض آليات التأويل التي جاءت بعدها، بحيث أصبح لنا الآن مجموعة من الأدوات المنهجية المرتبطة والمستفيدة من ميادين علم النفس المتعددة، ابتداء من الميدان التحليلي عند "فرويد" للميدان الجمعي عند "يونج"، للميادين التجريبية الجديدة والإكلينيكية التطبيقية على حالات محددة إلى آخر التجليات المرتبطة "بالذكاء الاصطناعي".. أصبح لنا من كل ذلك جهاز منهجي يستمد مقولاته من فروع علم النفس المختلفة، وبحوثه المتعددة، ليضيء عملية التواصل الأدبية التي تشمل كما قلنا المرسل.. والمتلقي.. والنص ذاته، وأصبح بوسع الدارس الآن ألا يجعل من التحليل النفسي للأدب مجرد ذيل أو هامش أو شاهد للدراسات النفسية العامة، وإنما يجعلها شيئاً قائماً بذاته يصطنع بؤرته الخاصة به، ويهدف إلى إضاءة بعض الجوانب المرتبطة بالظواهر الأدبية جنباً إلى جنب مع تقنيات أخرى تستمد مادتها من العلوم المجاورة لعلم النفس في كشف طبيعة الأدب مثل علوم اللغة، والرمز على وجه التحديد، وكان اقتران المنهج النفسي بالأبنية اللغوية هو الجسر الذي مكن الدراسات النفسية من أن تعبر من منطقة الشذوذ التي كان ينظر بها إلى الأدب والظواهر الجزئية، إلى منطقة تحليل البنية الكلية للعمل الأدبي في المناهج الحديثة بتوظيف التقنيات المستخدمة في الدراسات النفسية التجريبية.

المراجعات

- 1 - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده: أ.د. محمد خلف الله أحمد.
- 2 - التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل.
- 3 - مجموعة أعمال فرويد الكاملة: مترجمة.
- 4 - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة: د. مصطفى سويف.
- 5 - تشريح النقد: نرثروب فراي - ترجمة محيي الدين صبحي.

منظومة المناهج الحداثية

الفصل الرابع

المنهج البنيوي

ابتداء لم ينبثق المنهج البنيوي في الفكر الأدبي والنقدي وفي الدراسات الإنسانية فجأة وإنما كانت له إرهاصات عديدة تخمرت عبر النصف الأول من القرن العشرين في مجموعة من البيئات والمدارس والاتجاهات المتعددة والمتباينة مكاناً وزماناً، لعل من أولها ما نشأ منذ مطلع القرن في حقل الدراسات اللغوية على وجه التحديد، لأن هذا الحقل كان يمثل طليعة الفكر البنيوي، وإن لم تستخدم فيه منذ البداية المصطلحات البنيوية.

كانت أفكار العالم اللغوي السويسري الشهير "دي سوسير" هي المنطلق لهذه التوجهات لأن مبادئه التي أملاها على تلاميذه في "كورس" الدراسات اللغوية في جنيف كانت تمثل البداية المنهجية للفكر البنيوي في اللغة وذلك عبر مجموعة من الثنائيات المتقابلة التي يمكن عن طريقها وصف الأنظمة اللغوية.

في مقدمة هذه الثنائيات، ثنائية اللغة والكلام، إذ ميز سوسير بين مجموعة القواعد والمبادئ المتصلة بلغة ما والتي تعمل في ذهن الجماعة وتمثل النموذج المرجعي للغة وبين الممارسات الفعلية التي تبرز في أداء الأفراد وحديثهم اليومي والتي يطلق عليها الكلام.

فالكلام عمل فردي أي مختلف مشتت يقع في الزمن المتغير، بينما اللغة نموذج جماعي ذهني لا يبرز على سطح الحياة وهو الذي يحكم عمليات الكلام ويمثل مرجعيته التي يحتكم إليها.

تصور "سوسير" للغة قريب جداً من التصور الذي يمكن أن نطلق عليه "الأبنية اللغوية" وإن لم يستخدم هذا المصطلح، أما الثنائية الثانية التي كان لها



أهمية كبيرة في تحديد توجه الفكر اللغوي البنيوي وهي التي أقامها دي سوسير للتمييز بين محورين:

محور تاريخي تطوري من ناحية يركز على دراسة الظواهر في مسارها وصورورتها في الزمن وتحولاتها المختلفة ومحور تزامني وصفي يعني بتحليل نظام الظواهر في لحظة زمنية معينة بغض النظر عن تاريخها السابق وتطورها اللاحق، وهذان المحوران سنجدهما يطبقان بعد ذلك في كثير من الدراسات التي سميت منذ بداية القرن بالدراسات التاريخية والدراسات الوصفية.

ومن الثنائيات التي أبرزها "دي سوسير" وكان لها أثرها بعد ذلك في الفكر اللغوي والأدبي والإنسانية بصفة عامة هي التمييز بين علم اللغة الداخلي وعلم اللغة الخارج، علم اللغة الخارجي المرتبط بالعلاقات والظروف والبيئات والأوضاع الخارجية المتصلة بالحقائق اللغوية، أما علم اللغة الداخلي فمرتبط بالقوانين المنبثقة من اللغة ذاتها بغض النظر عن الإطار الخارجي.

← هناك مدارس أخرى أسهمت إلى درجة كبيرة في تشكيل الفكر البنيوي، من أهمها مدرسة الشكليين الروس التي تبلورت في روسيا في العشرينيات من القرن الماضي، وقد كانت هذه المدرسة تقاوم النزوع الأيديولوجي الذي صاحب وأعقب الثورة الاشتراكية، لذلك ركزت هذه المدرسة مفاهيمها على دراسة الشكل الأدبي ودلالاته وكانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جداً من مفهوم البنية.

يمكن أن يكون مصطلح البنية قد ورد عرضاً في دراسة الشكليين الروس خاصة عند تحليلهم للنظم الإيقاعية في الشعر ولطبيعة النثر، ولغير ذلك من القضايا المرتبطة بطبيعة الأدب وأدبيته.

لم تكتشف نصوص الشكلانيين الروس إلا بعد فترة بفعل التيار الذي أحدثته المدرسة البنيوية، مما أدى إلى إعادة رد الاعتبار لمبادئ الشكلية الروسية.

هناك شخصية روسية قامت بدور كبير في التنظيم والربط بين الاتجاهات الغربية المختلفة في النصف الأول من القرن العشرين وهي شخصية العالم اللغوي الكبير "رومان جاكوبسون" فقد كان في بدايته من الشكليين ثم انتقل بعد ذلك عضواً في حلقة براغ اللغوية في الثلاثينيات ثم انتقل إلى الأربعينيات والخمسينيات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أثر تأثيراً كبيراً في بلورة

كثير من الأفكار المرتبطة بالبنوية اللغوية وهو الذي يمكن عن طريقه - إلى درجة كبيرة - أن ندرس تطور المفاهيم البنوية منذ مراحلها الأولى إلى أن أصبحت متبلورة في الفكر البنيوي اللغوي والأدبي في الستينيات، إلى جانب هذا لا بد أن نذكر الإرهاصات المنهجية التي كانت قريبة من المجال البنيوي والتي تمت في الجزء الآخر من العالم الغربي، في إنجلترا وأمريكا على وجه الخصوص والتي كانت لها عواملها المستقلة عن ذلك ومبادئها المتلاقية مع المبادئ البنوية في بدايتها الأولى والتي يطلق عليها "مدرسة النقد الجديد"، هذه المدرسة النقدية كانت أيضاً قد أسفرت في تجربتها الفكرية والمنهجية عن نتائج مماثلة وموازية لتلك النتائج التي تمخضت عنها المدارس التي أشرنا إليها في الفكر اللغوي والأدبي في العالم "أوروبا الشرقية".

والنقد الجديد يركز بالدرجة الأولى - أيضاً - على المفاهيم اللغوية ابتداءً من المفاهيم الوظيفية التي انتشرت لدى اللغويين الغربيين إلى نفس المفاهيم التي ستسفر بعد ذلك عند الالتقاء في تيار البنوية العريض، وتلتقي أيضاً مع تلك الاتجاهات في دفع الحركة المنهجية في الأدب ونقده إلى أن تتركز وتستقطب في دراسة النص الأدبي في حد ذاته بغض النظر عن العوامل الأخرى الخارجية المحيطة به التي تجعله يذوب في محيطه النفسي أو محيطه الاجتماعي الخارجي.

النقد الجديد رفع مجموعة من الشعارات التي كانت توازي تلك النتائج المنهجية التي توصلت إليها المدارس السابقة، وأخذ كل ذلك يتفاعل مع المناخ النقدي العالمي بصفة عامة حتى تشكلت في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن المعالم البارزة للحركة البنوية في اللغة والأنثروبولوجيا وعلم النفس والنقد الأدبي.

وكان من أبرز مظاهر التلاقي الخصب بين الاتجاهات المعرفية المختلفة لكي يتولد عنها هذا المنظور البنيوي الجديد أن علماء الإناسة أو الأنثروبولوجيا وفي مقدمتهم العالم الكبير "لوفي شتراوس" قد أدرك بفطنته أن المنهج التاريخي والتحليلي لدراسة البنى الاجتماعية وتحليل علاقات المجتمعات الأولية لا يسفر عن نتائج يقينية أو مقنعة، وأن النموذج اللغوي يمكن أن يكون أكثر عوناً وأشد خصوصية من التحليل التاريخي، وقد التقى مع "جاكوبسون" في هذه الأفكار ثم تضافرت جهود الاثنين في لحظة كاشفة فكتبا معاً تحليلاً بنيوياً لسونيت القطط لبودلير، عالم أنثروبولوجيا بكل أدواته المنهجية في تحليل الأساطير والعلاقات

الاجتماعية في المجتمعات البدائية والعالم اللغوي بمحصوله الوفير في الدراسات الصوتية والإيقاعية واللغوية بصفة عامة، يلتفتان لتحليل نص شعري لشاعر فرنسي، يمكن أن نعتبر نموذج تحليل سونيت القطط بمثابة الإعلان عن مولد المنهج البنيوي في النقد العالمي الحديث.

كان يوازي ذلك - أيضاً - تيارات فاعلة في المجالات المعرفية والإنسانية المشاكلة للأنثروبولوجيا ولعلم اللغة، كان يوازي ذلك مثلاً - الجهد الذي أشرنا إليه من قبل عند "جاك لاكان" في التحليل النفسي البنيوي وفي المزج بين عمليات التداعي في الوعي والبنية اللغوية البنيوية التي تستقطب دائماً نموذج اللغة، لكن فيما يتصل بالنقد الأدبي كان لهذا الاستقطاب ما يبرره على وجه الخصوص، وذلك لأن طبيعة المادة المكونة للأدب في التحليل النقدي الأخير كانت هي اللغة، فالأدب لا يتكون من أفكار ولا مشاريع ولا آراء، وإنما هو جسد لغوي ممثل للنص الأدبي، ومن ثم فإن أي مقارنة لتحليل هذا الأدب بمنهج علمي كان من المفروض عليها أن تبدأ من منطلق اللغة، لا من منطلق ما وراء اللغة من فكر وميتافيزيقا وأشياء أخرى لا ترتبط بالمادة المباشرة للأعمال الأدبية، فتأسست على هذا الاعتبار البنيوية في النقد الأدبي على أساس مجموعة من المبادئ، من أهمها:

أولاً: اعتبار المحور التاريخي في الدراسات الأدبية محوراً مشبعاً لم يعد له ما يبرره، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار الاستغراق فيه، خاصة على يد هؤلاء الأيديولوجيين الذين أسرفوا في تحويل كل شيء إلى تاريخ وفي فهمه على أساس قوانين مفترضة للماضي والمستقبل لا يمكن إثبات صحتها التجريبية بإجراءات إمبريقية، فالتاريخ فلسفة في الدرجة الأولى والأدب لا يكون أدباً بما فيه من فلسفة وإنما بشيء آخر هو الذي سوف يطلق عليه بعد ذلك "أدبية الأدب".

الخطوة الأولى - إذن - تمثلت في التعطيل المؤقت والمقصود لمحور البحث التاريخي في الأدب لتفعيل المحور الآخر المقابل له وهو البحث في الأدب كنظام في حد ذاته.

ثانياً: يتركز النقد في دراسة الأدب باعتباره ظاهرة قائمة في لحظة معينة تمثل نظاماً شاملاً، والأعمال الأدبية تصبح حينئذ أبنية كلية ذات نظام، وتحليلها يعني إدراك علائقها الداخلية ودرجة ترابطها والعناصر المنهجية فيها وتركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به وظائفها الجمالية المتعددة، ومن هنا سنجد أن العنصر

الجوهري في العمل الأدبي هو الذي لا يرتبط بالجانب الخارجي، سواء بالمؤلف أو سياقه النفسي ولا بالمجتمع وضروراته الخارجية ولا بالتاريخ وصيرورته، وإنما يرتبط بما بدأ البنيويون يسمونه بأدبية الأدب، أي تلك العناصر التي تجعل الأدب أدباً، تلك العناصر التي أمكن اعتبارها ماثلة في النص محددة لجنسه الفني ومكيفة لطبيعة تكوينه، وموجهة لمدى كفاءته في أداء وظيفته الجمالية على وجه التحديد.

أدبية الأدب: هذه المقولة شاعت في الستينيات، حيث نقلت مركز القيمة في الأعمال الأدبية من السياق التاريخي والسياسي الاجتماعي والسياسي النفسي لتضعه في السياق المنبثق من الأعمال الأدبية ذاتها أي في طبيعتها الشعرية بالمفهوم الواسع لكلمة الشعرية التي لا تقتصر على جنس بذاته وإنما تشمل كل الأجناس الفنية.

ثالثاً: ارتبط ذلك إلى درجة كبيرة بنظرية شاملة لجاكوبسون عن وظائف اللغة طبقاً لمنظومة المرسل والرسالة والمرسل إليه وقناة التواصل والشفرة وتمثلت لديه وظائف اللغة في ستة جوانب أبرزها هي الوظيفة الشعرية وهي التي يصبح فيها التركيز على الرسالة ذاتها، وقيمتها تكمن فيها، هذه القيمة هي التي تحدد الوظيفة الشعرية، وطبقاً لهذه النظرية "الشعرية" فإن الوظيفة الشعرية لا تقتصر على الأدب بل توجد بمقادير متفاوتة في مستويات اللغة الأخرى، لكنها لا تعد حينئذ مهيمنة على ما عداها، ولا تهيمن على وظائف اللغة إلا في التصور التي توصف فيه بأنها شعرية أي أدبية، فالوظيفة الشعرية هي المقابل لأدبية الأدب وهي التي يدعو إليها والعناية بها النقاد البنيويون.

لكن مجموعة هذه المبادئ المولدة لهذا التيار في الفكر النقدي العالمي لم تلبث أن اشتبكت مع تيارات أخرى من أهمها التيارات الماركسية والوجودية التي كانت مسيطرة على الحياة الفكرية الغربية في الستينيات على وجه التحديد، وكان هذا التيار الجديد كان من القوة والاحتكام لروح العلم والدقة المنهجية بحيث استطاع أن يصبغ بقية التيارات بطابعه واستطاع أن يغير لغة النقد السائدة في العالم والنظرية المرتبطة بطبيعة الأدب وعلاقته بالمجتمع.

لم يتعرض البنيويون بشكل مباشر لتحليل طبيعة علاقة الأدب كأعمال إبداعية بالحياة، لأنهم منذ البداية حددوا مجال عملهم بأنهم ليس لغويين ولكنه ميتالغوي، بمعنى أن المبدع - شاعراً، قصاصاً، روائياً، كاتباً مسرحياً - يرى

العالم ويكتب عنه، فإذا بلغة النقد تسبح فوق لغة النص، وتحاول أن تقبض عليها وتمسك بها، وتحلل علاقتها.

فإذا كان موضوع الأدب هو العالم فإن موضوع النقد هو الأدب، وبذلك لم يعد النقد مجالاً لبروز أيديولوجيات أو نظريات مرتبطة بجوانب سياسية أو اجتماعية أو تاريخية.

كانت تلك أكبر خطوة جذرية لمحاولة تخليص النقد الأدبي من المنطلق الأيديولوجي في سبيل أن يكون علماً للأدب، لأن بوسع الأدباء أن يكونوا أيديولوجيين كما يشاؤون، تفرض عليهم ذلك طبيعة موقفهم من الحياة لكن الناقد يعميهم كثيراً أن يقعوا في نفس هذه الأيديولوجيات، لأنهم حينئذ سوف يحتكمون في قراءة الأدب إلى معايير مسبقة في أذهانهم فلا يستطيعون رؤيته على حقيقته ولا اختبار كيفية أدائه لوظائفه التعبيرية والجمالية.

بهذا المفهوم نجد أن فكرة الحقيقة قد تغيرت في النقد ابتداء من البنيويين، لم تعد هناك حقيقة جوهرية فلسفية ينشدها المبدع بكتابته وينشدها الناقد بتحليله لهذه الكتابة، لكن إذا كان للمبدع حريته في أن يرى ما يراه فإنه لا يفعل ذلك إلا عبر قوانين المنطق ومجموعة الرموز المتناسكة في الأعمال الأدبية.

إذن مهمة الناقد ليست هي اختبار مدى مصداقية الكاتب بالنسبة لعلاقته بالمجتمع كما كان الناقد الأيديولوجي السابق يحصرها في هذا النطاق، وإنما أصبحت مهمته أن يختبر لغة الكتابة الأدبية، ويرى مدى تماسكها وتنظيمها المنطقي والرمزي ومدى قوتها أو ضعفها بغض النظر عن الحقيقة التي تزعم أنها تعكسها أو تعرضها في كتاباتها.

معنى هذا أن نظرية الأدب ابتداء من البنيوية قد أصابها تحول جذري لم تصبح نظرية في الحياة وإنما أصبحت نظرية في ظواهر الإبداع الأدبي من منظورها اللغوي والفني والجمالي، تندرج طبقاً لذلك ضمن الفلسفة العامة التي تأسست عليها تيارات العلم الحديث ومشت موازية لها وهي فلسفة "الظاهراتية" والتي تتميز - على وجه التحديد - بحذفها للجانب الميتافيزيقي الغيبي في دراسة الأشياء وتركيزها على الجوانب التي تتجلى للإدراك على الظاهر في لحظة معينة، هذه هي الفلسفة التي تحكم طبيعة المنطق العلمي في العصر الحديث.

البنيوية استندت على هذا الجدار الفلسفي المتين، باعتبارها محاولة في تحويل دراسة الأدب ونقده إلى نوع من العلم الإنساني الذي يأخذ بأكثر قدر

من روح المنهج الحقيقي طبقاً لمجموعة المصطلحات التي استخدمتها البنيوية في مجال النقد الأدبي، كما مثل علم اللغة منبع تلك المصطلحات التي استخدمت في المجالات المعرفية الموازية لها.

في مقدمة هذه المصطلحات، مصطلح "البنية" لأنه هو التأسيس في العملية كلها. ومصطلح البنية كان قد نشأ في علم النفس موازياً لفكرة الجشطالت أو الإدراك الكلي وكان قد نشأ في الأنثروبولوجيا أيضاً لإدراك نظم العلاقات في المجتمعات البدائية والإنسانية بصفة عامة، ونشأ أيضاً في علم اللغة، وأصبح من الضروري - أيضاً - في النقد الأدبي.

لعل أبرز ناقد فرنسي أعطى لمصطلح البنية منطقه الأول كان "رولان بارت" في دراساته ومقالاته النقدية النظرية والتطبيقية؟

وقد شب جدل حول مفهوم مصطلح البنية باعتباره تصوراً ذهنياً مجرداً وليس مجموعة من العلاقات الحسية في هياكل مادية يمكن أن يطولها الإدراك المباشر. كان هناك خلاف أو تساؤل وهو، هل البنية في الهيكل المادي الذي نراه أم هو التصور الذهني الذي نخلقه بعقولنا ويدرك العقل به طبيعة هذا الهيكل المادي الخارجي؟.

وانتصر مفهوم البنية باعتباره تصوراً ذهنياً أكثر مما هو علاقات محسوسة مادية. وتبلور مفهوم البنية عند عدة قضايا يمكن ترتيبها على الوجه التالي خاصة فيما يتصل بالنقد الأدبي:

المبدأ الأول: إن الأعمال الأدبية برمتها تمثل أبنية كلية لأن دلالتها في الدرجة الأولى ترتبط بهذا الطابع الكلي لها. فكما نعرف في الرياضيات الحديثة على وجه التحديد بأن النتيجة الكلية لا تعد ترجمة لمجموع الأجزاء فحسب وإنما نابعة في الدرجة الأولى من طبيعة العلاقات المائلة فيما بينها. هذا التصور الكلي للأبنية واعتبار البنى الجزئية ليست من الأجزاء المادية المحسوسة هو جوهر النظرية البنيوية، فالقصيدة لا تصبح مجرد مجموعة من الأبيات، نعاملها في الظاهر على أنها محصلة لهذه الأبيات، يعني ذلك أن القصيدة لا تبني من أبيات كما توحى النظرة السطحية المتعجلة بل تبني من مستويات - وهي التي يمكن تقسيم العمل الأدبي إليها - تخترق هذه الأجزاء وتتغلغل فيها وتشتبك معها، يمكن أن ندرك من ذلك أن البنية الدلالية للقصيدة الشعرية مثلاً هي محصلة مجموعة من البنى المتمثلة في البنية الإيقاعية والبنية التركيبية والتعبيرية والبنية التخيلية التي تصل إلى ذروتها في المستوى

الرمزي الكلي. نجد أن الإيقاع والتركيب والتخييل والترميز لا تتحدد كلها بحدود الأبيات بل هي ماثلة في كل بيت وسارية عبره، من هنا فإن تراتبها وتداخلها وتكوينها في نهاية الأمر للبنية الدلالية الشعرية لا يمضي على النسق السطحي الخارجي الذي يبدأ من الجزء ليمضي إلى الكل، بل يمضي على نحو آخر أعمق لهذا النسق ومتخللاً له أيضاً، الأمر يشبه ذلك إذا تحدثنا مثلاً عن السرديات في القصة والرواية، سنجد أن الرواية لا تتكون من فصول مرتبة من الفصل الأول والثاني... الخ، لأن هذه أجزاء الجسم الخارجي لكن تتكون من أبنية وأن هذه الأبنية تتمثل - مثلاً - في بنية الأصوات وهي تختلف عن الشخصيات، بنية الأصوات الفاعلة أو الفواعل في العمل السردى الروائي ثم بنية الزمان الذي تدور فيه الأحداث وتقوم فيه تلك الفواعل بوظائفها وأدوارها المختلفة، ثم بنية الخطاب السردى ذاته المتمثل في مستويات اللغة المختلفة من سرد وحوار وحوارية وغير ذلك من العناصر الداخلة في الخطاب الروائي، وهذه البنى بطبيعتها لا تتموقع في أجزاء من الرواية بحيث لا يمكن أن نقول إن الزمن يقع في هذه المنطقة والفواعل تقع في المنطقة المجاورة والخطاب الروائي يقع في المنطقة الثالثة وإنما كلها تسري عبر مواقع النص الروائي بأكمله ولا تتركب البنية الكلية إلا من طبيعة الشبكة المتداخلة والمتراتبة والمنظمة في هذه البنى الجزئية.

مفهوم البنية يصبح مفهوماً بالغ الأهمية بمستوياته المختلفة الكلية والجزئية في تحديد طبيعة الأعمال الأدبية.

المبدأ الثاني: ويظل هدف البنيوية هو الوصول إلى محاولة فهم المستويات المتعددة للأعمال الأدبية ودراسة علائقها وتراتبها والعناصر المهيمنة على غيرها وكيفية تولدها ثم - وهذا أهم شيء - كيفية أدائها لوظائفها الجمالية والشعرية على وجه الخصوص واقتضى التركيز على هذا الجانب - الشعرية - اتخاذ عدة إجراءات موقوتة، منها ذلك المبدأ الذي أثار قضية كبرى في الأوساط الأدبية والنقدية، لأنه كان يتمثل في استعارة فهمها الناس - لكي يسخروا من البنيوية - فهماً حرفياً، فقد أطلق البنيويون شعار "موت المؤلف" لكي يضعوا حداً للتيارات النفسية والاجتماعية في دراسة الأدب ونقده، وبدأ تركيزهم على النص ذاته بغض النظر عن مؤلفه، أيا كان هذا المؤلف والعصر الذي ينتمي إليه والمعلومات المتصلة به.

وقد كان البنيويون يقصدون بهذا الشعار "موت المؤلف" ألا تصبح البيانات المرتبطة بالمؤلف هي جوهر الدراسة النقدية للأدب أو هي نقطة الارتكاز الاستراتيجية الموجهة للعمل التحليلي النقدي. بل يجب أن تكون نقطة الارتكاز — عندهم — هي في النص ذاتها، فقد كانت مقولة "موت المؤلف" كناية بلاغية عن هذه الاستراتيجية الجديدة.

ثالثاً: عيب على البنيوية أن تهدف إلى خلع الأعمال الأدبية عن جذورها وقتلها وهذا ليس صحيحاً، فلا يوجد ناقد يحترم عمله ويدرك طبيعته لا يأخذ في اعتباره السياقات المتعددة للنصوص الأدبية، لكنه يصبح مطالباً بالألا يسرف في الاعتماد على هذه السياقات، فلا يرى العمل إلا من منظورها، يصبح مطالباً بأن يوظف السياق لفهم النص بدلاً من أن يوظف النص لفهم وشرح السياق، كانت — إذن — نظرة البنيوية إلى الأعمال الأدبية باعتبارها نظاماً رمزية دلالية تقوم في الدرجة الأولى على مجموعة من العلاقات المتبادلة بين البنى الجزئية، وعلى العناصر المهيمنة على غيرها في العمل الأدبي، وهذا هو الأهم في نهاية المدار، الوظائف التي تحدد استراتيجيته والتي يمكن أن يقاس بها مدى كفاءته أو عجزه مع الأخذ في الاعتبار أن البنيوية مالت بشكل واضح وصريح إلى إحلال مفهوم جديد للقيمة يختلف عن المفهوم القديم.

رابعاً: كان النمط السائد من القيم التي تحكم النقد السابق على البنيوية يستمد من عناصر خارجة عن النص الأدبي، فكانت أحكام القيمة في النقد الأيديولوجي ترتبط بمدى تحقيق الأدب للأهداف الأيديولوجية وكانت أحكام القيمة المرتبطة بالنقد التاريخي تتصل بمدى استمرارية وخلود الأعمال الأدبية إلى غير ذلك من الاعتبارات.

انطلق البنيويون على أساس رفض أحكام القيمة الخارجية وإحلال حكم آخر محلها هو حكم الواقع، وحكم الواقع لا يتمثل هنا في الحياة الخارجية ولا تياراتها وإنما يتمثل في الدرجة الأولى في النص الأدبي ذاته، الواقع هو النص الأدبي ذاته، ما ينبثق من النص وما يتجلى فيه وما يتمثل فيه من كفاءة شعرية ومستوى أدبي، كل ذلك هو الذي يمثل قيمته وليس علاقته بغيره من المستويات الخارجية سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو غير ذلك من المستويات، فإحلال حكم الواقع محل القيمة كان من تلك المنطلقات المؤسسة للمفاهيم البنيوية.

كان المنطق الأساسي الذي تبناه البنيويون في تحليلهم للنصوص يتمثل باعتبارها أنظمة للعلاقات تخضع لقوانين التراتب والتبئير، أي هيمنة عنصر على بقية العناصر باعتبارها مكن بؤرة النص الدلالية والفعالية الوظيفية مما أدى إلى مجموعة جديدة من التصورات المرتبطة بكل جنس أدبي على حدة، لتعلقها بالخواص النوعية لهذه الأجناس الأدبية. عندئذ يتجلى لنا المشهد بأوضاع جديدة غير مسبقة، ولأول مرة نرى أن منهجاً نقدياً لا يؤثر عنصراً على غيره إذ يتسع مداه لقراءة وتحليل جميع الأعمال الأدبية المنتمة إلى أي عصر على حد سواء، ذلك لأنه لا يتبنى أيديولوجية خاصة ولا يؤثر منظومة قيمية معينة، بل يتعامل مع المفاهيم الأدبية والشعرية، وهي مفاهيم حاضرة في النصوص الأدبية في مختلف العصور.

كما نرى أنه لا يقدم جنساً أدبياً على غيره مثلما كانت تفعل التيارات السابقة، الرومانتيكية في تفضيلها للشعر باعتباره مجلى تفجر العواطف ومظهر توهج الخيال، فكان الشعر جنسها الإبداعي المفضل في مقابل المسرح الذي كان المجال الأول للمبادئ الكلاسيكية، على أن الرومانسية استوعبت متغيرات التحولات الجديدة للأجناس الأدبية وبروز الرواية للتعبير عن الطبقة البورجوازية الجديدة وتبلور النزعة الفردية فيها مما جعلها قابلة للدخول في إطار الرومانسية، لكن لو تذكرنا مثلاً أن الثورة الرومانسية في الأدب العربي قد تسربت عبر ثلاث تيارات شعرية، هي:

أ - مدرسة الديوان.

ب - مدرسة المهجر.

ج - مدرسة أبولو.

أدركنا مدى ارتباط الفكر الرومانسي بالشعر وتجليه فيه بنفس القدر الذي ارتبط في الفكر الواقعي منذ منتصف القرن العشرين حتى اليوم بالقصة والرواية على وجه الخصوص والسرد الذي يمكن أن يمسر في المسرح النثري ابتداءً من "ابسون" حتى الآن، بمعنى أن الرواية أصبحت هي الجنس المفضل للواقعية؛ لأنها الوعاء الذي يمكن أن يتسع لتقديم كون مصغر يحاكي في قوانينه الكون الأكبر الذي نعيش فيه، ليس معنى ذلك أن الواقعية لم تدخل إلى مجال الشعر والمسرح وغيرهما، لكن معناه أن بؤرتها المستقطبة لمبادئها الجمالية والفنية وجدت أقوى تعبير لها في الرواية، على عكس كل ذلك نجد البنيوية تتساوى لديها جميع الأجناس الأدبية، فبقدر ما يمكن للقصة أن تتسع

لتحليلها يمكن للرواية والقصة وغيرهما من الأجناس أن تصبح مجالات تتمثل فيها عمليات البحث عن البنى الكبرى والبنى الصغرى والتقاط كيفية إنتاجها لدلالاتها، كما أن كثيراً من البنيويين اتجهوا إلى النصوص الأدبية القديمة سنجد واحداً من كبار نقاد البنيوية وما بعدها يوزع جهداً تحليلياً جباراً على قطبي الشعر الجاهلي من جانب، ونصوص الحدائث كما تتجلى عند أدونيس من جانب آخر وأقصد به كمال أو ديب في دراسته الرؤى المقنعة من ناحية، والشعرية المعاصرة من ناحية أخرى.

سنلاحظ أن الإجراءات المتصلة بالتحليل البنيوي قد تترجم نظم العلاقات وأشكال العلاقات الدلالية في الأعمال الأدبية إلى رموز رياضية أحياناً وأشكال بصرية أحياناً أخرى، بغية توضيح هياكلها ورسم علاقاتها المتشابكة، الأمر الذي يضيف على بعض هذه الدراسات صبغة علمية بقدر ما يجعلها صادمة للذوق الأدبي السائد ومجافية له. إذ بوسعنا أن ننجز كلاماً كثيراً في معادلة مختصرة أو في رسم توضيحي، لكن مقارنة الدقائق المتصلة بطبيعة النظم الأدبية واحتواء ما تتضمنه من تعقيدات بالغة يعد أمراً شديداً الصعوبة ومخلاً في التبسيط مما يمكن أن يحدث رد فعل مضاد لدى القراء والمتلقين، نتيجة لعدم تعودهم على استخدام الرموز من ناحية وعدم تفهم طرائق الاسترسال في التحليل اللغوي من ناحية ثانية، كما أن تتبع الأبنية الصغرى على المستوى اللغوي في دراسة الشعر قد أغرى بعض الباحثين من الوجهة التطبيقية بإجراء نوع من التحليلات الميكروسكوبية التي تتوقف عند علائق الجزئيات الصغيرة وتضخمها بشكل لا يسمح لها بإمكانية استيعاب الخطوط الكبرى للنصوص، مما يجعل إدراج هذه البنى الصغرى في بنية كبرى كلية شاملة خطوة مفتقدة في كثير من الدراسات، الأمر الذي أوهم بعض الدارسين، بأن هذا النوع من المقاربة النصية للجزئيات يفضي إلى تفتيت الأعمال ويضيع الرؤية الشاملة لأنساقها العامة، لكن النقد المتوازن كان دائماً يتخذ التحليل الميكروسكوبي للخلايا المكونة مجرد وسيلة للتنفيذ إلى بناء الكلية، وقد وظف البنيويون مجموعة من المفاهيم الإجرائية المتعلقة بتحليل الأجناس الأدبية بفعالية واضحة، فكانت أفكار مثل الانحراف وتجديد الدهشة والمصطلحات البديلة تمثل منطلقات مناسبة لتصوير الأنظمة اللغوية في الشعر على اعتبار أن ما يسمى بالانحراف أو العدول أو الانزياح، حسبما يفضله كل ناقد في الصياغة، يمثل المنطقة التي يفضي تأملها إلى استكشاف خصوصية اللغة الشعرية وما يصبح به الأدب أدباً،

واكتشاف فاعلية هذا الإجراء في توليد الدهشة لدى المتلقين وجذب انتباههم إلى القول في حد ذاته وإنعاش تمثله له، على أساس انقطاع العادة التي تميت الحس وتجمد الشعور، فعندما تثير الأبنية المعجمية أو التركيبية أو التخيلية دهشة المتلقي فإنها تفعل ذلك بمخالفتها للنسق المعهود من ناحية، وابتكارها لأنماط جديدة في الصياغة والتحليل وقدرتها على تحفيز التلقي الجمالي للنص والتجاوب الملائم له من ناحية ثانية.

كما أن إدراك منظومات الثنائيات الجدلية في الدال والمدلول والتشكيلات التي تترتب عليها كثيراً ما اعتبر المنطلق المناسب للمقاربة البنيوية للنصوص الشعرية، وقد تترتب على ذلك مراجعة جميع المبادئ المستقرة في الأعراف النقدية والخاصة بالشعر وإعادة تكييفها وطرحها طبقاً للتصورات البنيوية مما لا يتسع المجال للإفاضة فيه، ومما يرتبط بطبيعة البنى الإيقاعية والتخيلية وما تخضع له من نظم وإمكانات.

أما فيما يتصل بالسرد فقد انطلق البنيويون من استثمار بعض ميراث الشكلية الروسية في القصة والرواية، خاصة كتاب "بروب" الشهير عن "مورفولوجيا الحكاية الشعبية"، فقام كل من جريماس وبريمون بتطوير منظومة الوظائف التي تحددها "بروب" لقياس الحكايات الشعبية إلى نظرية جديدة من السرد، أصبحت تسمى فيما بعد بـ "نظرية الفواعل" كما تبلورت في مربع جريماس الشهير. وأخذت تمتد حتى تكون منها الآن علم جديد ينبثق من النقد البنيوي هو علم السرد، خاصة كما يتمثل في أعمال "جينيت" ومدرسته، وأهم ما تضيفه هذه المدرسة هو إعادة رسم البنى النصية في الأعمال السردية على أسس جديدة تبرز فيها عملية تعالقها في الدرجة الأولى وتشكلاتها المختلفة في النصوص المتعددة، وذلك مثل بنية الزمان، والفواعل، والخطاب الروائي ومستويات الإيقاع السردية وارتباطها بأبنية الزمان والفواعل والخطاب، كان التطور المستقل عن الاتجاهات البنيوية الأولى الذي تبلور في علم السرديات الحديثة بدايته الباكرة في التحليلات المستقصية والمطولة "لبارت" في مراحلها المختلفة لبعض الأعمال القصصية في الأدب الفرنسي، وأمثله لشبكاتهما المترابطة من الدوال والمدلولات والوظائف، وقد قامت مدرسة "تيل كيل" بدور كبير في تنمية الدراسات السردية، ونشرت مجموعة من التحليلات النصية تكشف عن إمكانات جديدة لمقاربة النص السردى بطرائق لم تكن معهودة من قبل وأدى اكتشاف نظريات "باختين" في الحوارية، والتناص والتنمية اللاحقة



التي ظفرت بها هذه النظرية على يد كل من "تودوروف" و"جوليا كرسنيفا" إلى
تغير أساسي في مشهد النقد السردي وإلى بروز مفاهيم جوهرية مثل "الحوارية"
و"التناص" تلعب دوراً رئيسياً في الخطاب الأدبي في السرد مثلما لعبت مفاهيم
الانحراف والدهشة والثنائية دوراً مماثلاً في النص الشعري.

أقترن كل هذا بموجة نشطة من ذبوع المبادئ النبوية واقتحامها لكل
المجالات وأصبحت العالم منذ السبعينات فيما يتصل بالأدب والنقد شديد الميل
إلى التبیین، إلى إعادة قراءة المنهجيات المتعمدة والمتداخلة لبلورة هذا التطور
المفاهيمي والمعرفي للفكر النقدي، لم يتخلف عن ذلك أنصار "الميتولوجيا"
القديمة مثل الماركسيين، والوجوديين وغيرهم، فغزت المصطلحات النبوية بقية
الحقول المعرفية بالتوازي مع الأدب والنقد وشكلت الإطار المفاهيمي العام
للفكر والثقافة في العالم في العقود الأخيرة، حتى إن التيارات التي أعقبها كانت
تأسيساً عليها وتنمية لمبادئها وتداركاً للنواقص التي أسفرت الخبرة الإبداعية
والفكرية عن تحديدها في مسارها.

وفيما يتصل بثقافتنا العربية، مثل التيار النبوي منطلقاً هاماً لتجديد
الخطاب النقدي في العالم العربي عبر عدد من الدوائر المنتشرة في مختلف
أنحاء العالم العربي، وتمثل أبرزها في مدرسة فصول في مصر ومجموعات
النقاد الشبان النشطين في الترجمة والتأليف في المغرب العربي، ويمكن أن
نعتبر الكتاب الأخير الذي أصدره الدكتور "عبد السلام المسدي" عن النبوية
رصداً تقريبياً للتيار النبوي في النقد العربي.

المراجع

- 1 - نظرية البنائية في النقد الأدبي: و. د. صلاح فضل.
- 2 - مشكلة البنية: د. زكريا إبراهيم.
- 3 - عصر النبوية: ترجمة د. جابر عصفور.
- 4 - النبوية وما بعدها: ترجمة د. محمد عصفور.
- 5 - بنية لغة الشعر: ترجمة د. أحمد درويش.
- 6 - التحليل النبوي للقصة.

الفصل الخامس

المنهج الأسلوبي

هناك نوع من التداخل والتخارج بين الأسلوبية والبنوية، على اعتبار أن الأسلوبية انبثقت من الفكر اللغوي والأدبي قبل الحركة البنوية متأثرة بذات الاتجاهات التي أسهمت في تشكيل البنوية، إذ إن أول مؤسس للأسلوبية هو "تشارل بالي" تلميذ "سوسيير" وبالتالي فإن هناك نوعاً من الترابط بين الألسنية من ناحية واتجاهات دراسة الأساليب التعبيرية من ناحية ثانية.

على أنه من الطريف أن نلاحظ أن "بالي" كان يعني بالمظهر اللغوي للأسلوب خارج نطاق الأدب ويركز على الجانب العاطفي في تشكيل سمات مميزة للأساليب الغوية، ولم تكن قد تكونت البنوية حتى تصطدم بها الدراسة الأسلوبية، واشتركت عدة مدارس أوربية في تنمية الاتجاهات الأسلوبية على أسس لغوية كما تمثل ذلك في الأسلوبية التعبيرية عند الفرنسيين، وأسلوبية الحدس المعتمد على فكرة الدائرة الفيلولوجية لدى المدرسة الألمانية، كما تمثلت في كتابات "فوسلبر" و"سبتزر" وأعمال المدرسة الإيطالية والإسبانية على وجه الخصوص كما تمثلت في كتابات "داما سو ألونسو" وكان للمدرسة الإيطالية علاقة خاصة بمحاولة بث روح التجديد في الدراسات البلاغية والإرهاص بمقدمات الفكر الأسلوبي في الثقافة العربية عند الشيخ "أمين الخولي" في كتابه "فن القول" الذي صدر منذ نصف قرن، كما أن مدرسة "بالي" الفرنسية تركت أثرها أيضاً عند معاصرة الأستاذ "أحمد الشايب" في كتابه "الأسلوب" الذي نشر في نفس الفترة تقريباً، لكن علاقة البحث البلاغي العربي ما لبث أن انقطعت بعد ذلك بالتيارات الأسلوبية ولم تتواصل إلا في السبعينات من نهاية القرن العشرين، المهم لدينا أن التيار البنوي امتد في الستينيات ليصبغ الدراسة الأسلوبية بطابع خاص عند "ريفاتير" وبحوثه الشعرية الألسنية وتوجيهه لمفاهيم

الأسلوبية كي تتسق مع المنظومة البنيوية العامة، مما ترتب عليه، شبكة التوافقات بين الفكر الأسلوبي والبنيوي. وظل بعد ذلك التخالف يتمثل في الدراسات الأسلوبية السابقة على البنيوية، والتحليلات البنيوية التي لا تنكئ على المفاهيم الأسلوبية ولكن تتعمق قليلاً في تمثل البحث الأسلوبي وتتصور أنه يقع في تلك المنطقة الفاصلة والواصلة بين اللغات والأدب، حيث تتركز الدراسات الأسلوبية على السطح اللغوي من النسيج الأدبي، كمحاولة التقاط ملامحه وتحديد ظواهره بأكثر قدر من الدقة والتجسيد. غير أنها لا تلبث بعد ذلك أن تختلط بالنص ذاته عبر عمليات التفسير وشرح الوظيفة الجمالية للأسلوب لتجاوز السطح اللغوي ومحاولة تعمق دينامية الكتابة الإبداعية في تولدها من جانب وقيامها بوظائف الجمالية من جانب آخر.

ويعتبر مفهوم الأسلوب نقطة الانطلاق الأساسية في الدراسة الأسلوبية، وقد تعددت التعريفات في مجموعات يمكن إيجازها في ثلاث:

أولاً: مجموعة التعريفات التي ترد الأسلوب طبقاً للنموذج التواصلية المعروف في الدراسات الإنسانية إلى المرسل ابتداءً من تعريف "دي بوفون" الشهير المختزل لدينا في عبارة يسيرة وهو "الأسلوب هو الرجل نفسه" على ما فيه من طابع مجازي، إلى تلك التعريفات الأخرى التي تميز الأساليب باعتبارها خواص الكتابة المحددة المجسدة للطابع الشخصي للكتاب والمتمثلة لملاحظهم التعبيرية المميزة مثلما تعد البصمة ممثلة للشخص.

سنجد أن الاتجاه التوليدي في دراسة الأسلوب يركز بدوره على هذا الطابع الشخصي للأساليب باعتبارها تمثيلاً للملامح المميزة للكتاب، وتتصل بذلك أيضاً مجموعة التعريفات التي تنظر إلى الأسلوب باعتباره اختياراً لغوياً بين بدائل متعددة، إذ إن الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه ويشي بشخصيته ويشير إلى خواصه.

ثانياً: تعريفات تتركز حول الخواص المتمثلة في النص ذاته بغض النظر عن قائله كما تتجسد موضوعياً في الأعمال الأدبية، وعندئذ تبرز تعريفات الأسلوب باعتباره انحرافاً عن قاعدة يمكن أن تتمثل في المستوى العادي المؤلف، أو بروزاً واضحاً لخواص نوعية في جسد الكتابة تتبلور فيها المعالم المميزة له وترتبط بذلك أيضاً تعريفات الأسلوب باعتباره محصلة مجموعة من الملامح المرجعة بنظام خاص في النص الأدبي، بمعنى أن الملمح الوارد

مرة واحدة لا يشكل سمة أسلوبية، لكنها عندما تتجلى بالتكرار بايقاع محدد يصبح حينئذ سمة أسلوبية.

ثالثاً: تعريفات تحاول أن تمسك بالأسلوب بالنظر إلى الطرف الثالث في التواصل وهو "المتلقي" وترتبط بشكل ما بالطرفين السابقين مع التركيز على المتلقي باعتباره هو الذي يميز بين الخواص الأسلوبية ويدركها ويكشف انحرافها وبروزها عن طريق ما تحدثه من أثر ما تقوم به من وظيفة، وحينئذ يتجلى مفهوم القارئ النموذجية الذي قدمه "ريفاتير" لكي يصبح هو محور التعرف على الخواص الأسلوبية وتصبح الاختيارات المتعلقة به والتحليلات المرتبطة بردود فعله هي منطقة تحديد المعالم الأسلوبية وإخضاعها للتحليل والتفسير.

وأياً ما كان تعريف الأسلوب الذي نرتضيه والخلافات الناشئة بين الباحثين نتيجة لتعدد وجهات النظر حول مفهوم الأسلوب وطرائق توصيفه فإن النتيجة التي نخلص إليها من كل ذلك هي أن مفهوم الأسلوب ليس بسيطاً ولا سطحياً يسمح لنا بأن نتبينه بطريقة آلية بل يحتاج إلى جهد خلاق في مقارنة النصوص ومحاولة الإمساك بطوابعها الخاصة، كما نلاحظ أن هذا المفهوم ذاته يختلف في طبيعة تكوينه من جنس أدبي إلى آخر نظراً لارتباطه بنظريات الشعرية وتقنيات التعبير الخاصة بكل جنس أدبي، فأسلوب الشعر تتم مقارنته على مستوى البنى التعبيرية الصغرى ودرجات تواترها، أما أسلوب الرواية فنظراً لاتساع مساحته النصية واختلاف تقنياته التعبيرية فإنه يلتقط عبر البنى الكبرى المرتبطة بتعدد الأصوات وبأبنية الزمان والمكان وبالشكل الكلي للخطاب الروائي في جملة ودرجة تحقيقه لأنواع متميزة من شعرية السرد، كما أن لغة المسرح بدورها تتخذ تشكيلات مخالفة لما رأيناه في الشعر والسرد طبقاً للمكونات الدرامية للنص المسرحي وطبيعة إشارتها وأنواع الكتابة المسرحية، الأمر الذي يجعل السمات اللغوية غير كافية وحدها لتوصيف الأساليب المسرحية الكبرى.

ومن الملاحظ - أيضاً - أن الدراسة الأسلوبية يمكن أن تنطلق من بعض الخواص المجسدة في النصوص والتي يتم تحديدها بطريقة تجريبية طبقاً لمناهج الاختبار العلمي، بما يجعلها قابلة لأن تجري بمساعدة أجهزة "الكومبيوتر" الحديثة وقابلة بالتالي للتطبيق العملي على نطاق واسع.

فعندما يتم تزويد الحاسب الآلي ببرامج متقنة لالتقاط الخواص النوعية لكتابة مؤلف ما في مستويات اختياراته المعجمية وأطوال جملة ولوازمه التعبيرية وأشكال المجاز عنده، إذا أحسنا برمجة ذلك أمكن لنا ببسر أن نستعين بالحاسب كي يمكننا من خلاله أن ندرج ما ينتمي إلى هذا الكاتب من نصوص واستبعاد ما عداه، وإذا كان هذا ميسوراً في لغة التواصل العادية نظراً لبساطتها وشفافيتها، فإن كثافة اللغة الأدبية وتعقد مستوياتها يجعله أمراً أشد عسراً وإن لم يكن مستحيلاً حتى الآن.

لكن تظل منطقة تصنيف مجموعات الظواهر اللغوية للأساليب وتوصيف أوضاعها وشرح العلاقات القائمة بينها ثم تفسير دلالتها الإبداعية وارتباطها خاصة برؤية الكاتب للعالم تلك المنطقة من أكثر مناطق الدراسة الأسلوبية خصوبة واستعصاء. على أن هناك مجموعة من الإجراءات البحثية في علم الأسلوب تنتمي إلى مجال الإحصاء. ويمكن أن تقدم عوناً كبيراً في تحديد الظواهر الأسلوبية ورصدها بالدقة الكافية إذ إن إتباع المنهج العلمي في اختيار المادة الإحصائية طبقاً للقوانين المعمول بها في هذا الصدد مما يضمن تمثيل العينات الصحيحة لكل الشامل بدقة وتفرغها بطريقة منظمة تسمح باستخلاص النتائج المترتبة عليها بالوضوح الكافي، مراعاة كل ذلك تسمح لنا بأن نتبين بعض ظواهر الأسلوبية في شكلها الحسي المباشر الخاضع للاستقراء والتصنيف، كخطوة تمهيدية للعبور من الخواص الكمية إلى الخواص الكيفية المرتبطة بالتفسيرات النقدية للظواهر الأسلوبية.

وقد أوسع بعض الباحثين العرب من اللغويين خاصة والبلاغيين أيضاً بتوظيف المنهج الإحصائي في دراسة لغة الشعر، وقدما ما يمكن تسميته قاعدة بيانات صلبة تصلح أساساً لاستخلاص بعض النتائج المهمة المرتبطة بطبيعة اللغة الشعرية ومظاهرها المتعددة، لكن الفرضيات العلمية التي تقوم عليها بعض هذه التقنيات تحتاج إلى مناقشة نقدية وفلسفية مستفيضة حتى يمكن أن نطمئن إلى نتائجها.

على كل حال فإن الدراسة الأسلوبية تتميز بطابعها التراكمي، بمعنى أن البحوث الأولى فيها لا تعد بنتائج تكافئ الجهد الذي يبذل فيها، إذ تقتصر على توصيف النصوص في ذاتها وإبراز خواصها التعبيرية، لكنها كلما تكاثرت أتاحت للباحثين فرصة للمقارنة بين النتائج واستخلاص الدلالات العميقة لملاحق

الكباين والاتفاق، إذا إننا لا ندرك أهمية تمثل مجموعة من الملامح في الخطاب الأدبي إلا بقدر ما نكشفه نتيجة لها من خصوصية..

والخصوصية تتعلق بالدرجة الأولى بالسّمات الفارقة المميزة للنص على غيره، والمحددة لطبيعته المختلفة عما سواه، معنى ذلك أن الأسلوبية بهذا المفهوم تخضع لفكرة التنامي المعرفي عن طريق تعرف الآليات لإجراء المقارنات بين النتائج التي يصل إليها الباحثون وتحليل الفروق بين الأساليب المختلفة.

ومن المناسب في هذا أن نتبين بوضوح العلاقة الوثيقة بين المنظومات الإجرائية والنظريات التي تخضع لها طبقاً لما أشرنا إليه في التمهيد لهذه المحاضرات من أن المناهج تمضي بالتدرج والتتزل من الرؤى النظرية إلى البحوث العامة المنهجية حتى تصل إلى التحليلات النصية التطبيقية المحددة، ويسير علم الأسلوب على وجه الخصوص في هذا الصدد موازياً لعلم اللغة الذي تمضي حركة البحث فيه بنفس الطريقة ابتداء من النظرية اللغوية التي تقدم الإطار المفاهيمي والمعرفية للدرس اللغوي ومجموعة البحوث التفصيلية المطبقة لهذه النظرية والمولدة بدورها لجملة التحليلات النصية التي تستخدم فيها مجموعة المصطلحات المنهجية المتكونة عبر البحث في مستواه الوسيط.

بوسعنا أن نقول إن هناك ثلاثة اتجاهات أساسية في البحث الأسلوبي مترتبة على المحور التواصلي المشار إليه من قبل، هي: الاتجاه التوليدي، والاتجاه المعتمد على نظرية الشعرية النصية، والثالث المتمثل في الأسلوبية الوظيفية المرتبطة باختبارات القراءة وردود الأفعال الناجمة عنها، كما أن هناك مجموعة أخرى من العلاقات تربط علم الأسلوب بمنظومة العلوم المتداخلة مع بعض الدوائر وذلك مثل علاقته بعلم اللغة حيث يعتبر البحث الأسلوبي وثيق الارتباط بالنظرية اللغوية، ولكنه يتميز في تركيزه على تحليل لغة الأدب، أخذاً في اعتباره نظريات الشعرية النوعية المنبثقة منها، ويفيد علم الأسلوب بصفة خاصة من جميع التحولات المعرفية التي شهدتها الألسنية الحديثة، ولقد كان لنظريات "دي سوسير" وإسهامات "جاكوبسون" وتصورات "تشومسكي" بعد ذلك أثر حاسم في إثراء مسار الدراسة الأسلوبية، كما أن علم الأسلوب تربطه وشائج قوية بالبلاغة الجديدة على وجه الخصوص، إذ إن البلاغة في جوهرها تميل إلى هذا الطابع التعقيدي وعلم الأسلوب هو الذي يزودها بالنتائج المشكّلة للقواعد العامة بعد استخلاصها من التحليلات النصية المتعددة



أما النقد الأدبي فيمثل الدائرة الثالثة التي تتداخل فيها الأسلوبية وتشترك معها، لا لكي تقدم منهجاً بديلاً كما يتوهم بعض الباحثين العرب وإنما لكي تمد النقد بقاعدة بيانات صلبة تستطيع أن تسهم في توجيه الفروض التفسيرية الشارحة وتضع أساساً علمياً للتأويلات اللاحقة.

فالنقد يفيد من معطيات الأسلوب ويوظف نتائجه كي يجيب عن تساؤلاته الأكثر غوصاً في طبيعة العمل واستكشافاً لعلاقاته المتعددة فيما وراء اللغة.

أحسب أن أهم مجال للدراسة الأسلوبية عندما تنصب على تحليل خواص اللغة الأدبية لا بد أن يتعلق ببناء شبكة المتخيل الأدبي عبر تحليل أشكال المجاز وأنساق الصور وتكوينها للبنى التخيلية المستغرقة للنصوص بأكملها، فمثل هذا التحليل النوعي لتقنيات التعبير وتوليدها للأبنية التصويرية الكلية للأعمال الأدبية، هو الكفيل بتجاوز الخواص الجزئية في النصوص الأدبية، ومحاولة الإمساك بالطوابع المميزة لأساليبها الكلية، وعندئذ تصبح عمليات التقاط الظواهر الأسلوبية المختلفة مجرد خطوة إجرائية لا تكتمل إلا بالتحليل النقدي الكفيل بالربط بين مستويات التعبير المتعددة، وسنرى فيما بعد أن الدراسة النصية التداولية التي وضعت تصوراً كلياً لما يطلق عليه بمكعب البنية النصية، تفسح مجالاً واضحاً للبحوث الأسلوبية في نسق التحليل الكلي للنصوص الأدبية.

المراجع:

- 1 - الأسلوبية والأسلوب: د. عبد السلام المسدي.
- 2 - علم الأسلوب: د. صلاح فضل.
- 3 - في النص الأدبي: د. سعد مصلوح.
- 4 - اتجاهات البحث الأسلوبي: د. شكري عياد.
- 5 - الشوقيات، دراسة أسلوبية: د. محمد الهادي الطرابلسي.
- 6 - أسلوب الرواية: د. حميد لحمداني.

المنهج السيميولوجي

يعد المنهج السيميولوجي من مناهج ما بعد البنيوية، وإن كنا — تاريخياً — نلاحظ أنها بدأت مع البنيوية تقريباً، والقضية الأولى التي تواجهنا فيما يتصل بالسيميولوجيا هي قضية المصطلح، وذلك لتعدد المصادر الثقافية في إطلاق الكلمات الدالة ابتداء من الاسم العلمي. سنجد أن المتحدثين باللغة الفرنسية يتبعون تقاليد مدرسة "جنيف" التي تزعمها "دي سوسير" ويطلقون على هذا اللون "السيميولوجيا"، وسنجد أن المتحدثين "بالأنجلوسكسونية" يتبعون تقاليد موازية تعود إلى "شارل بيرس" الأمريكي المنطقي الشهير ويؤثرون مصطلح "السيميوتيك" أما النقاد والباحثون العرب فهم يتوزعون على ثلاثة اتجاهات، بعضهم يؤثر مصطلح "سيميولوجيا" وله مبرراته في ذلك لمحاولة القرب من مصادر الفكر النقدي الحديث لصناعة مصطلحاتها طبقاً للتقاليد العربية القديمة لابتلاع الإشارات اللغوية وتمثلها وتوظيفها بما يسمح بالتواصل العلمي مع بيئاتها العلمية.

ومنهم من يعتمد على المصادرة الأنجلوسكسونية فيفضل كلمة السيميوطيقا، وخاصة أنها تمضي على نفس النسق التي كانت تمضي عليه عمليات التعريب كما انتقلت كلمات البيوطيقا وغيرها بهذا الشكل اللغوي.

أما الاتجاه الثالث فهو يبحث في التراث العربي ذاته على الكلمات المناظرة والتي يمكن أن تؤدي بشكل تقريبي الدلالة اللغوية المطلوبة في العلم الحديث ويقع على السيمياء ويشق منها السيميائية، مع أن السيمياء كانت تقترن في الأدب العربي القديم بالكهانة والسحر والسيمياء بالمفهوم القروسطي واقتفاء الأثر وغير ذلك من الإيماءات التي تبعده عن الإطار المعرفي الحديث، ومع ذلك سنلاحظ أن مجموعة النقاد المغاربة يوشك أن يكون رأيهم قد استقر على

هذا المصطلح "سيمياء". ومنذ حاولت في السبعينات تقديم المنهج البنيوي فقد أثرت مصطلح السيميولوجيا لمحاولة استزراعه في الثقافة العربية الحديثة بعداً عن مظنة اشتباهه بالمجالات العربية القديمة من ناحية وتوثيقاً للعلاقة المعرفية مع الفكر النقدي الحديثة وتيسيراً على المتلقين من ناحية ثانية.

وأياً ما كان الأمر فإن تسمية المصطلح مجرد منطوق، والمهم أن نبحث عن "ماهي السيميولوجيا؟" وسنجد أن اثنين من الباحثين عاشا إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر وماتا في مطلع القرن العشرين وهما "دي سوسير" و"تشارل بيرس" بشراً كل بطريقته بالسيميولوجيا، حيث درس سوسير العلاقة اللغوية ووضح خواصها الأساسية ورأى أنها تندرج في منظمة أكبر هي العلامات بصفة عامة، فإذا كانت الكلمة علامة على الفكر أو الشيء. فإنها تقترب في ذلك من علاقات أخرى سمعية وبصرية تدل على شيء آخر غير ذاتها، وأن المستقبل يعد بنشأة علم كبير لنظم العلامات المختلفة، يعتبر علم اللغة جزءاً منه ويخضع لقوانينه، وكانت إشارات سوسير إلى المحاور الاستبدالية والتركيبية والعلاقة الاعتباطية بين دال والمدلول هي أهم العلامات في المجتمع بأسره.

في تلك الأونة ذاتها كان المنطقي "بيرس" يؤسس السيميولوجيا بتحليله لأنواع العلامات المختلفة وتمييزه بين مستويات المتعددة، حيث يحدد الفروق بين الإشارات وهي المتجاورة في المكان مثل "السهم" الذي يبصره مشيراً إلى مكان معين ومثل حركة الإصبع عندما تشير إلى شيء أمامها باعتبار تلك الإشارات مجالاً لأنواع خاصة من العلامة تقوم بين الدال والمدلول فيها علاقة التجاور المكاني، وهي ذات طابع بصري في مجملها ثم يميز بعد ذلك نوعاً آخر من العلامة وهو "الأيقونة".

و"الأيقونة" تتمثل في الصورة الدالة على متصور، مثل صورة العذراء في الطقوس المسيحية، أو صورة السيارة في إشارات المرور أو غير ذلك مما تحدده طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول فيه على أساس التشابه.

فالأيقونة تشبه ما تشير إليه والعلاقة بينهما حينئذ علاقة تخيلية ولن نستطيع فهم العلاقة الأيقونية ما لم تكن وعيت من قبل نظيرها المشابه لها. أما النوع الثالث فهو "الرمز"، ونموذجه الأول هو الكلمة اللغوية، والرمز يتميز بأن علاقته تجعلنا نصل بين مدلول الكلمة ودليلها الخارجي.

والعلاقة في الرمز بين طرفي العلامة علاقة اعتباطية تتم بالصدفة وليست علاقة سببية، وإن كان لها أن تكتسب بعد = ذلك بأثر رجعي طبقاً لكل ثقافة طابعاً سببياً ملتحمًا، ولكنها في البداية لم تكن بهذا القدر من الارتباط العقلي، ما يميز العلامة في كل أشكالها عند "إيكو" وهو ناقد إيطالي معاصر هو قابليتها للكذب، فما يقبل الكذب علامة وما لا يقبل الكذب فهو ليس بعلامة، وبالطبع فإن قابلية الكذب تعني قابلية الصدق، لأنه قرينه وبديله، أي أن العلامة هي كل ما يشير إلى غيره سواء كانت حقيقة طبيعية أو مصنعة من الإشارات الطبيعية كالدخان عندما يشي بالنار أو يدل على النار، والسحاب عندما يعد بالأمطار، لكن العلامات الثقافية هي موضع الدرس السيميولوجي في نظمها المختلفة التي تتناولها البحوث السيميولوجية، وذلك مثل توظيف الإشارات اللونية والخطوط المختلفة سيميولوجياً في علامات المرور حيث يلعب اللون "أحمر، أصفر، أخضر" والشكل "من الرسوم والخطوط" والأيقونات وحركة التبادل بين الأشكال وتقاطعها مع الألوان، يلعب كل ذلك دوراً هاماً في منظومة علامات المرور، كذلك درسوا علامات المأكل في قوائم الطعام وعلامات الملابس في المناسبات الاجتماعية من أفراح وأحزان، من ملابس ملائمة للصباح وأخرى للمساء، من قطع وألوان يؤثرها الرجال والنساء ودلالات كل ذلك بتشكيلاتها المختلفة.

ولعل السيميولوجيا أن تكون من أكثر مناهج الفكر النقدي الحديث قابلية لأن تنتشر في دوائر الأدب والفن والثقافة في إطارها الكلي الشامل، إذ إننا سرعان ما سندرك أن هذه العلامات تختلف في دلالاتها من ثقافة إلى أخرى، وإذا كان سوسير قد رأى أن علم اللغة جزء من منظومة كلية هي السيميولوجيا، فإن أحد تلاميذه غير المباشرين وهو "بارت" قد قلب هذه العلاقة عندما رأى أن أدق وأعقد وأكمل نظام سيميولوجي ابتدعه الإنسان إنما هو اللغة، وأن كل النظم الأخرى تكاد لا تستغني عن اللغة وتعتمد في دلالاتها عليها، فنظام المرور المعتمد على الحظر والإباحة لا بد له أن يترجم أشكاله إلى كلمات فلا نكاد نفهم تلك الدوائر الحمراء بإطارها الأسود عندما نراها منتصبة على رأس الطريق دون أن ترد على أذهاننا كلمة ممنوع، وهكذا فإن دخول اللون والحركة كان في اللغة الدلالية يقترن بالتوظيف اللغوي سواء كان ذلك صراحة أو ضمناً، فاللغة هي النموذج السيميولوجي الأكمل، ويكاد بارت ينتهي إلى اعتبار السيميولوجيا فرعاً من فروع الدراسات اللغوية، وما يعيننا هنا هو التركيز على علاقة السيميولوجيا بالنقد وهو المجال الذي نعمن فيه، ونجد أن

لغويًا آخر من الجيل الثاني بعد سوسير هو الذي وضع هذه العلاقة بترسيمته الشهيرة عن عمليات التواصل الثقافي والاجتماعي، وهو "جاكوبسون" حيث قدم ترسيمة التواصل في كل النظم اللغوية والأدبية التي سوف يعتمد عليها النقد في تحليل العلامات ودراسة العلامات الماثلة بينها وتعتمد هذه على التمييز بين المرسل والمرسل إليه وقناة الاتصال كخط مقطع بينها، لكن المهم هو بقية أطراف هذه الدوائر، حيث نجد فوق قناة الاتصال، الطرف المتعلق بالسياق، وحيث نجد تحته قناة الاتصال والشفرات التي يتعين على الأطراف الاحتكام إليها لفهم مضمون الرسالة.

سياق

رسالة

مخاطب اتصال مخاطب

شفرة

عندنا إذن مرسل وملتق وسياق وشفرات ورسالة ثم قناة اتصال بين هذه الأطراف، وعندئذ نجد من المفيد أن نتوقف عند بعض الاصطلاحات السيميولوجية الهامة لكي نحاول تعريفها بإنجاز لتتفتح الأفكار المتعلقة بها، ومن أهم هذه المصطلحات:

1 - مصطلح "العلامة":

والعلامة عند "دي سوسير" تتكون من دال هو صورة صوتية، ومدلول هو المفهوم، أما عند "بيرس" فإن العلامة هي شيء ما يشير إلى شيء آخر سواء عند شخص ما في ناحية أو صفة معينة، فالعلاقة بينهما هي علاقة الإحالة أو المرجعية، وفي نظرية "بيرس" السيميولوجية لكل علامة موضوع تشير إليه، غير أنه لا يشترط أن يكون لهذا الموضوع وجود طبيعي.

2 - مصطلح "التبادل":

أخذ السيميائيون عن سوسير فكرة أن أية إشارة قبل ظهورها في أي منطوق فعلي توجد في شفرتها كجزء من قائمة تبادلية، أي من نظام من العلاقات التي تربطها بإشارات أخرى من خلال التشابه والاختلاف، ففي اللغة ترتبط الكلمة تبادلياً مع المترادفات والمتضادات والكلمات الأخرى من الجذر نفسه، والكلمات التي تشبهها صوتياً وغير ذلك، وتقدم هذه البنية التبادلية الميدان الممكن للاستبدالات التي تنتج عنها الاستعارات والتوريات والكنائيات

والمجازات الأخرى. وتؤدي فكرة التبادل إذا ما دفعت أبعد قليلاً إلى عملية توليد سيميائية غير محدودة.

3 - مصطلح "التركيب":

وهو ذلك الجزء من السيمياء "عند تشارلز موريس" الذي يهتم بالقوانين التي تغطي القول والتأويل، وبهذا المعنى يعني شيئاً شبيهاً جداً بالنحو، ويشير إلى علاقة الكلمات بعضها ببعض في داخل فعل كلامي أو قول معين.

4 - مصطلح "الشفرة" Code:

يرى السيميائيون أن الفهم بأجمعه يعتمد على الشفرات أو السنن، فحينما نستخلص معنى من حدث ما، فذلك لأننا نمتلك نظاماً فكرياً، أي أن الشفرة تمكننا من القيام بذلك، فالبرق كان يفهم ذات يوم على أنه علامة يصدرها كائن متسلط يعيش في الجبال أو في السماء، أما الآن فنفهمه على أنه ظاهرة كهربائية. لقد حلت شفرة علمية محل شفرة أسطورية، واللغات الإنسانية هي أكثر الوسائل المعروفة تطويراً للتشفير Coding ولكن توجد شفرات تحت لغوية "مثل تعابير الوجه" وفوق لغوية "مثل التقاليد الأدبية". ويتضمن تأويل الأقوال الإنسانية المعقدة استعمالاً مناسباً لعدد من الشفرات في وقت واحد.

نستطيع أن نخلص من ذلك إلى أن نظم الأدب بأجناسه المختلفة تعتمد على توظيف الإشارات اللغوية المكتوبة بها هذا الأدب. وتخليق شفرات أخرى مركبة فوقها، لتحديد طرائق الدلالة الأدبية، فالشعر مثلاً يوظف النظم الإيقاعية وأنماط التصوير العيني في التخيل الشعري كشفرات خاصة به، والمسرح يوظف شفرات إيحائية أو لغوية مرتبطة بحركات الفعل الإنساني قولاً وحركة، والسرد يوظف تقنياته المرتبطة بالزمان والمكان والفواعل - أي الأصوات الفاعلة في النص - لخلق دلالاته، المهم في كل هذه النظم الأدبية أن العلامة لا يمكن أن تعمل بمفردها وإنما بإدراجها في سياق متعدد المستويات، فموقعها هو الذي يحدد وظيفتها، وذلك مثل النقاط التي تتشكل منها "ميناء" الساعة فعندما يشير "العقرب" القصير إلى النقطة التي تقع في أعلى الساعة، وفي الوضع الأوسط بالضبط بينما يشير العقرب الطويل إلى النقطة التي تقع إلى يسارها وقبلها بثلاث نقاط فإنني أستطيع أن أقرأ الساعة على أنها 45 و 11 فلا يحول تشابه النقط المختلفة للعلامات المختلفة دون أن يحدد الموقع مفهوم كل منها، فليس من الضروري أن تكون كل العلامات متخالفة.

أمر آخر تندرج فيه البحوث السيميولوجية عندما تمتد إلى نطاق الأدب والفنون البصرية الأخرى مثل السينما، وذلك لأنها تعتمد في المقام الأول على تركيب منظومات كبرى معقدة من علامات سمعية، بعضها لغوي وآخر موسيقي، وعلامات بصرية بعضها متصل بأوضاع وأشكال الممثلين وألوان الأشياء الطبيعية والصناعية وبعضها الثالث حركي يرتبط بتبادل المواقع وتطور الأحداث. فالمنظومة المتجانسة من هذه العناصر المتشعبة لا يمكن أن نفهم طريقة إنتاجها لدلالاتها الفنية إلا عبر توظيف مفاهيم سيميولوجية في تحليل أنماط العلامات وأوضاعها وتركيبها وكيفية إنتاجها للمعنى الكلي الناتج من مجموعها وليس من أجزائها. السيميولوجيا - إذن - كمنهج نقدي تطوير للمفاهيم اللغوية والتقنية والأدبية لجعلها قادرة على احتضان التوليفات الإبداعية الجديدة التي تدخل فيها الأشياء في نسيج من الكلمات والشخصيات لتحقيق عمل إبداعي فني، كذلك سنجد أن منهج السيميولوجيا هو الذي يستطيع - دون أن يقع في مزالق مناهج ما قبل البنيوية - أن يربط بين الإشارات الدالة في النظم الأدبية والفنية الجديدة وبين مرجعيتها في الإطار الثقافي العام، ففي مقدوره أن يقوم بموقعة النص سياقه في إنتاج المؤلف والجنس الأدبي الذي ينتمي إليه والتقاليد الثقافية التي يندرج في إطارها الكلي، دون أن يفلت منه الاهتمام والإمساك بالحلقات المفصلية الرابطة بين هذه المستويات، كذلك سنرى أن البحث السيميولوجي يسمح باتساع منطقة الفهم في إدراك النظم لتشمل قدراً من التآويل المنضبط، وذلك بالتمييز بين أنواع الشفرات المختلفة، فعندما تكون الشفرة عامة فإن إعادة فكها واستخلاص دلالاتها لا يصبح أمراً مرتبطاً بالمزاج الشخصي للقارئ وإنما يرتبط بأرضية مشتركة مع غيره من القراء المتلقين لهذه الشفرة العارفين بها، وعندما يتعلق الأمر بتوليد شفرة جديدة فإن آلية هذه التوليد تتوقف في نجاحها على إمكانات التواصل، وعلى دخول أكبر عدد من المتلقين في لعبتها الجديدة.

هناك بعض المصطلحات الأخرى التي تولدت في السيميولوجيا وأسفرت عن فعالية جديدة في التحليل النصي للأعمال الأدبية، وذلك مثل مصطلح التناس، إذ إنه في ضوء مفهوم الشفرة فإن التركيب لا يتمثل في مجرد إدخال كلمات في كلمات أخرى، أي تداخل النصوص وإنما يتجاوز ذلك لكي يصبح تعديل شفرة النص الجديد باقتلاع وتحويل شفرة النص المأخوذ، والتداخل بين الشفرة وما ينجم عنه من توليد للدلالات الجديدة هو الذي تسفر عنه عمليات

التناص بمنظور سيميولوجي، كما أن مصطلح الخطاب وشبكة العلامات الماثلة فيه ومرجعياتها المختلفة في إطار جنسها الأدبي وتقاليد المرعية تعد بدورها نتيجة من نتائج البحوث السيميولوجية، وتوظيفها اعتماداً على مفاهيم التداولية في الإجراءات التحليلية النقدية الجديدة، يعد - أيضاً - نتيجة أخرى من نتائج البحوث السيميولوجية.

وهناك أجناس أدبية قدمت لها السيميولوجيا أوفق المناهج الملائمة لطبيعتها وهي التي تمتاز فيها نظم العلامات، لأن الفن الذي يعد بمثابة الأم لها هو المسرح كان من أكثر المستفيدين تطبيقياً من المفاهيم والإجراءات السيميولوجية في التحليل، ونستطيع نتيجة لذلك أن نعتبر دراسة شفرات النصوص وتحليل مستوياتها والعلاقة الناجمة عن نظمها من أنجح وسائل البحث النقدي المعاصر.

المراجع

- 1 - السيميوطيقا وأنظمة العلامات: إعداد سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد.
- 2 - الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة: باسكال "مترجم".
- 3 - محاضرات السيميولوجيا، للشاعر والباحث محمد السرغيني.
- 4 - السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي.
- 5 - شفرات النص، الدكتور صلاح فضل.
- 6 - عناصر السيميولوجيا، بارت "مترجم".



الفصل السابع

التفكيكية

لأن عملية التفكيك ترتبط أساساً بقراءة النصوص، وتأمل كيفية إنتاجها للمعاني وما تحمله بعد ذلك من تناقض، فهي تعتمد على حتمية النص وتفكيكه، ومن ثم فإن مقاربتنا لها لا يمكن أن تكون عن طريق قراءة نص النقد فحسب وإنما باستعراض بعض المشاهد الأساسية في أدبيات التفكيك وتأملها والتعليق عليها.

سنلاحظ - أولاً - من الوجهة المعرفية أن التفكيك انبثق من داخل البنيوية نفسها كنقد لها، وانصب على مشكلات المعنى وتناقضاته ليزعزع فكرة البنية الثابتة، وليضعها - وهذا هو أثره المباشر في العلم الإنساني خاصة وفي الفكر والثقافة والأدب - بين قوسين، أي ليبرهن على طبيعة التناقض المعرفي بين النص والإساءات الضرورية التي تحدث في قراءته.

وإذا كان "رولان بارت" في الستينيات هو الذي بدأ حركة التفكيك ولم تكتمل معالم البنيوية حينئذ بطريقته الحادة اللاذعة في إثارة الأسئلة ومقارنة التصورات من جوانب كثيرة للكشف عن تعدد المعاني واختلافها، فإن "جاك دريدا" هو الذي أسس التفكيكية كمقاربة فلسفية للنصوص ونقد لها، وإذا أردنا أن نأخذ نموذجاً أولاً لهذا التفكيك فحسبنا أن نقرأ عند دريدا هذا المشهد في كتابه الأساسي "الكتابة والاختلاف" يقول: لما كنا ما نزال نعيش في عصر الخصوبة البنيوية فمن السابق للأوان أن نشرع بجلب حلمنا، يجب أن نفكر إزاءه بما يمكن أن يعنيه، فالنقد الأدبي بنيوي في كل عصر، بفعل جوهر وبفعل متصور، لم يكن ليعرف ذلك وأصبح يدركه الآن، وهو يفكر اليوم في نفسه، في مفهومه ونظامه وطريقته، بات يعرف أنه متصور عن القوة التي ينتقل منها أحياناً عندما يريتنا بعمق ومهابة أن الانفصال هو شرط العمل نفسه، وليس

شرط الخطاب حول العمل فحسب" ثم يستطرد قائلاً: "... ولكن البنية لا تتضمن الشكل والعلامة والتشكل فحسب، هناك أيضاً التضامن بين العناصر الكلية التي هي مشخصة دائماً، إن المنظور في النقد الأدبي هو بحسب تعبيرات دريدا تساولي وكلياتي، وإن قوة ضعفنا إنما تكمن في كون العجز يفصل ويحرر من الالتزام.

البنية هي الوجهة الشكلية للمضمون والشكل، سيقال: إن هذا التحديد من خلال الشكل هو فعل المؤلف نفسه قبل أن يكون صنيع النقد وبمقدار معين ولكن هذا المقدار هو ما يهمننا بأية حال.

اعتمد دريدا على تفجير البعد الفلسفي الطاغي في تناوله لأنواع الخطاب، مما يجعل النقد لديه مرتبطاً بالدرجة الأولى بمفهومه العام قبل أن يكون مرتبطاً بالنقد الأدبي على وجه الخصوص.

فقرارات دريدا للنصوص المختلفة، ونصوصه التي وضعها، تشكل كلها كما يقول "جون ستيرك" استكشافاً لمركزية الكلمة الغربية وميتافيزيقيا الحضور التي يمكن القول إن هذه النصوص تؤكد وتزعزعها في آن واحد هي الميتافيزيقيا الوحيدة التي نعرفها وهي تكمن خلف تفكيرنا كله، ويمكن القول إن الميتافيزيقيا تؤدي إلى مفارقات تتحد تناسقها وتماسكها الفكري، ولذا فإنها تتحدد إذا كان تحديد الوجود بوصفه حضوراً، ومن الممكن أن نتبين أن كل الكلمات المتصلة بالأساسيات والمبادئ أو المركز قد ظلت تسمى باستمرار حضوراً، ثم يستطرد "ستيرك" قائلاً: ربما كان من المفيد أن نعطي أمثلة لإيضاح ما تتضمنه فكرة ميتافيزيقيا الحضور ففي الكوجيتو الديكارتي: "أنا أفكر إذن أنا موجود" تعتبر الأنا خارج مجال الشك لأنها حاضرة في نفسها بفعل التفكير لذلك فإن مقولة: "أنا موجود" صحيحة بالضرورة كلما لفظتها أو تصورتها في عقلي. أو خذ مثلاً ثانياً هو فكرتنا الشائعة أن اللحظة الراهنة هي ما هو موجود، والمستقبل سوف يوجد والماضي وجد، ولكن حقيقة كل منهما تعتمد على حضور الحاضر، المستقبل حضور متوقع والماضي حضور سابق، والمثال الثالث فكرة المعنى عندما يخاطب بعضنا بعضاً باعتباره أمراً حاضراً في وعي المتكلم يعبر عنه بعد ذلك بواسطة الرموز والإشارات، فالمعنى - إذن - هو المسائل في ذهن المتكلم في اللحظة الحاسمة والأفكار التي تدخل في تشكيل علم من العلوم تستمد كلها من نظام الحضور، من حيث إنها تجعل حركة الاختلاف في نقطة ما متعلقة بشيء. مستقبل متطابق في ذاته، فالموضوعية على سبيل

المثال حضور قابل للتكرار بإمكانية التبدي المتكرر للأشياء أو مواقف متطابقة مع ذاتها، ومفهوم مركزية الكلمة لا يقوم إلا على تلك المركزية ذاتها التي يسعى لتحطيمها، لأنه يتضمن المحاجة والبرهان ويلجأ إلى الأدلة أو إلى أفكار عن التجربة، أي أنه يظل داخل النظام كاشفاً عن تناقضاته التي تمنعه أن يكون نظاماً تاماً للكتابة، ولذا فإن من المستحيل عند دريدا التوصل إلى علم جديد للدلالة أو المعنى لا يقع ضمن دائرة مركزية اللغة.

هذا يعني أن التفكيكية تأخذ على عاتقها قراءة مزدوجة، فهي تصف الطرق التي تضع بواسطتها المقولات التي تقوم عليها أفكار النص المحلل، تضعها موضع تساؤل وتستخدم نظام الأفكار التي يسعى النص في نطاقها بالاختلافات وبقية المركبات لتضع اتساق ذلك النظام موضع التساؤل، ولكن استناد كل نصوص دريدا نفسه، والنصوص التي قرأها، على هذه المزاوجة بين المسلمات الميتافيزيقية والموتيفات النقدية يؤدي إلى نشوء مشكلة لم يكن هناك سبيل إلى حلها حتى الآن، وهي وصف الاختلاف بين ما يدعو دريدا بالقسمة النصية، أو بين تزواج الموتيفات في كتاباته وتزاوجها في كتابات غيره من أصحاب النظريات المعاصرين الذين ينتقدهم، وستوضح أهمية هذا السؤال إذا نظرنا إليه من زاوية أخرى.

فكثيراً ما نفسر القراءات على أنها هجوم على الكتاب، لأنها تكشف عما عندهم من تناقضات مع أنفسهم أو وجود عوامل تفكيك ذاتية، لأننا اعتدنا على اعتبار أن التناقض مع الذات يفسر القيمة الفكرية لجهودهم، ولكن إذا كان هذا التناقض مع الذات أمراً لا محيد عنه فيما يقول دريدا أو لا محيد عنه في أي نص يطرح مشكلات كبرى على الأقل، فما الموقف الذي يتعين اتخاذه تجاه هذه النصوص؟

من الممكن للمرء باستمرار أن يستغل الإمكانية الاستراتيجية أو البلاغية التي تمكنه من التشديد على غفلة الكاتب عما يقوله نصه، ولكن ما دامت البنى التي يكشفها المرء هي في النص الذي كتبه الكاتب فإن مسألة وعي الكاتب بها تصبح أمراً غير ذي بال.

من هنا نرى أن فكرة الاختلاف أساسية في التصور التفكيكي وهي تهدم تراكيب الكتابة مع غيرها من المستويات، والتفكيكية بهذا المفهوم نشاط قراءة يبقى مرتبطاً بقوة النصوص واستجوابها، ولا يمكن أن يوجد مستقلاً كنظام مفاهيم قائمة بذاتها.



ووجد دريدا على ما يقول "ثورث" طريقة نموذجية فيما يتعلق بتجديد منهجية فعالية التفكير قد تم تجهيزها بتعبير مثل الكتابة يعتمد على مقاومتها لأنواع من المعاني المستقرة أو النهائية، وإطلاق سمة مفهوم عليه قد يؤدي إلى السقوط في فخ تخيل وجود نظام أفكار هرمي تحتل فيه الكتابة مكاناً متميزاً كما فعلت البنيوية، لهذا السبب لجأ دريدا إلى حصن مستقل من الاصطلاحات لم يكن من الممكن اختزالها إلى أي معنى ذاتي أو مفرد، وربما يكون فعل Diference الفرنسي أكثر هذه الاصطلاحات تعالياً حيث يقاوم مثل ذلك الاختزال.

فاللغة تعتمد على الاختلاف كما بين سوسير لكن الاختلاف ينتظم في بناء المواجهة المتميزة، حيث يتشكل تنظيمها الأساسي بالاختلاف، لا بوصف هذه الفكرة فقط ولكنه يعرض من خلال معنى غير مستقر باستمرار، من هنا فإن التفكير يعتبر نشاطاً يتشكل من خلال النصوص، عليها في النهاية أن تؤكد مشاركتها الجزئية فيما سبق أن فقدته، فتصبح القراءات الصارمة، والتي جاءت فيما بعد تصبح بذاتها معرضة لتفكيك أكبر للمفاهيم الفعالة التي تحملها.

هناك فكرة أخرى جوهرية في التفكير إلى جانب الكتابة وهي فكرة الانتشار أو التشتت قد ركز عليها دريدا في تقويضه للفكر الأفلاطوني خصوصاً فيما يتصل بمفهوم الكتابة عند أفلاطون ونظرية المحاكاة، يأتي هذا المفهوم لغوياً من الانتشار السلافي كأن يبذر المرء بذوراً أو ينثرها أو يشتتها، كما أن للفظه علاقة بالتنازل. أما المصطلح فهو يعني تناثر المعنى وانتشاره بطريقة يصعب ضبطها والتحكم بها، هذا التكاثر ليس بوسع المرء إمساكه وإنما يوحى بنوع من اللعب الحر، فهو حركة مستمرة تبعث المتعة وتثير عدم الاستقرار والثبات، ويأخذ هذا المصطلح بعداً خاصاً عند دريدا الذي يركز على فيضان المعنى وتفسخه، وفي كتابه الذي يحمل عنوان "الانتشار" يقدم مقدمة وثلاث مقالات طويلة يعالج في المقدمة قضية التصدير والتقديم ليجدها انتشرت سلباً في المقدمات والتصديرات، وي طرح المقال الأول "صيدلية أفلاطون" مشكلة الدواء وانتشار معناه المزدوج إلى الكلمات التي تنتسب إلى الأصل نفسه أو التي تجاوره مثل الترياق، وكريات الحب، والعلاج، والسم، وطرائق الطبخ، ومكوناته، فينتشر المعنى بينها مما يجعل تحديده غاية في الصعوبة، إذ يحدث علاقة نسب بين هذه المفردات ثم يربط كيفية معالجتها عند أفلاطون بالكيفية التي عالج فيها الكتابة، ويعالج في المقال الثاني قضية المحاكاة والنقد وانفصامه

أو اتصاله بالفلسفة، وفي الثالث يتركز حديثه على قضية المؤلف وكيف ينتشر اسمه في نصه وهكذا لا يعود اسم المؤلف العلم إلا من خلال مقولة الآخر ليصبح نتيجة نصوصية وليس أصلاً فاعلاً للنص، بهذا يحاول دريدا أن يمارس في هذا الكتاب عملية الانتشار ذاتها دون أن يكتفى بوصفها. من المعروف أن أفكار دريدا لقيت قبولاً شديداً وتنمية فكرية ونقدية وبلاغية لدى كوكبة من النقاد الأمريكيين في مقدمتهم "بول ديمن" و"هارولد بلوم".

كتب دي مان كتابين على جانب كبير من الأهمية هما "العمى والبصيرة" في أوائل السبعينيات وكتاب "أمثولات القراءة" في أواخر السبعينيات وهما يديناه ديناً واضحاً لدريدا ولكنه يطور فيهما مصطلحه الخاص ويدور العمى والبصيرة حول مفارقة مؤداها أن النقاد لا يصلون إلى البصيرة النقدية إلا خلال نوع من العمى النقدي، فهم يتبنون منهجاً أو نظرية تتضارب تماماً مع الاستبصارات التي تؤدي إليها، إن نقاداً مثل "لوكاتش، بلانشو، بوليه" يبدون مدفوعين بصورة غريبة إلى تحقيق المثال وكذلك فإن النقاد الجدد في أمريكا أقاموا ممارساتهم النقدية على أساس فكرة كولردج Colridge عن الشكل العضوي Organic Form وهي الفكرة القائلة إن للقصيدة وحدة شكلية تماثل وحدة الشكل الطبيعي، ولكن بدل أن يكتشف هؤلاء النقاد في الشعر وحدة العالم الطبيعي وتلاحمه، فإنهم اكتشفوا معاني متعددة الأوجه، وفي نهاية المطاف تحول هذا النقد الذي يبحث عن المعنى إلى الالتباس والتعدد في المعاني، وهكذا تبدو اللغة الشعرية الملتبسة مناقضة لفكرتهم الأصلية الكلية المماثلة لوحدة الموضوع.

ويؤمن دي مان أن هذه البصيرة المقترنة بالعمى يبسرهما انزلاق لا شعوري من نوع من أنواع الوحدة إلى الآخر، فالوحدة التي غالباً ما يكشفها النقد الجدد ليست قائمة في النص وإنما في فعل التفسير، وتؤدي رغبتهم في الفهم الشامل إلى ظهور الدائرة الهرمينوطيقية (Hermeneutic Circle) للتفسير، فكل عنصر من عناصر النص يفهم من خلال الكل، والكل يفهم بوصفه وحدة شاملة تتكون من جميع العناصر، هذه الحركة التفسيرية جزء من عملية معقدة تنتج الشكل الأدبي، ولكن الخلط بين دائرة التفسير هذه ووحدة النص يساعد هؤلاء النقاد على الاحتفاظ بنوع من العمى يؤدي إلى استبصار بالمعنى المنقسم والمتعدد للشعر "أي بأن العناصر لا تشكل وحدة" كأنه لا بد للنقد من أن يكون جاهلاً بالبصيرة التي ينتجها كما يقول "رومان سلدن" في



كتابته: من النظرية الأدبية العاصرة، ويمكننا أن نعثر على نموذج لهذه المفارقة في قول دي مان في نهاية كتابه "العمى والبصيرة": يكتب واحد من أبرز الغنائيين المحدثين وهو بول سيلان قصيدة عن أهم أسلافه فإنه لا يكتب قصيدة عن الضوء بل عن العمى وليس العمى هنا نتيجة غياب الضوء الطبيعي بل نتيجة استواء الأضداد في المطلق وفي اللغة، فهو عمى مرغوب فيه ذاتياً أكثر مما هو طبيعي. ليس هو عمى العراف بل عمى أوديب في كولونا الذي كان يعرف أن ليس بمستطاعه أن يحل لغز اللغة.

وتكمن إحدى الطرق التي يواجه بها الشاعر الغنائي هذا اللغز في استواء الأضداد اللغوي، أي ما هو تمثيلي وما هو غير تمثيلي في الوقت نفسه.

فكل شعر تمثيلي هو أيضاً أمثولي دائماً سواء أكان واعياً أو غير واع، ذلك نصف قوة الأمثلة في اللغة وتعمى على المعنى الحرفي المحدد للتمثيل المنفتح على الخارج. من ناحية أخرى نجد أن "هارولد بلوم" قد استخدم المجازات في النقد الأدبي على نحو يثير الإعجاب، ومع أنه من أساتذة جامعة "ييل" فإن نزعته النصية، أقل جذرية من "دي مان" أو "هارتمان". إذ يظل يعالج الأدب بوصفه مجالاً خاصاً في البحث، ولكنه استطاع أن يجمع بجرأة واضحة بين نظرية المجاز وعلم النفس الفرويدي والصوفية القبلانية، وهو يذهب إلى أن الشعراء منذ "ميلتون" - الذي هو أول شاعر ذاتي بحق - ظلوا يعانون من وعيهم بكونهم متأخرين في الزمن ويخشون نتيجة لظهورهم المتأخر في التاريخ، من أن يكون أبائهم من الشعراء قد استنفذوا كل إلهام متاح، فيعانون كرها أوديبياً للأب أو رغبة يائسة في إنكار الأبوة ويؤدي كبت مشاعرهم العدوانية إلى استراتيجيات دفاعية متباينة، فلا يوجد قصيدة تنهض بذاتها، بل هي تتخلق دائماً في علاقة غيرها، لذا كان الشاعر المتأخر في الزمن لا بد له من الدخول في معركة نفسية لخلق مساحة تخيلية يتمكن معها من الكتابة اللاحقة، وتلك المعرفة تتضمن إساءة لقراءة الشعراء القدامى من أجل تفسير جديد، هذا "التواطؤ الشعري" يخلق المساحة المطلوبة التي يتمكن فيها الشاعر من توصيل إلهامه الأصيل، لأنه لو لم يقم الشاعر بهذا التشويه العدوانى لمعاني أسلافه لخنقت التقاليد كل إبداع.

وكثيرة هذه المبادئ الأخرى المرتبطة بآليات تفكيك النصوص إبداعاً ونقداً جميعاً تلقى عند فكرة جوهرية في استحالة التفرد بالمعنى ورصد



التناقض في جذر أية بنية والتشكيك في إمكانية فهم النصوص بشكل قاطع، إذ تظل عمليات القراءة وإساءتها هي المولدة للدلالات المتجددة.

وقد وجد هذا التيار أنصاراً له في الفكر العربي، يمارسونه في الفكر الفلسفي والأدبي بغية خلخلة المفاهيم القارة ووضعها موضع التساؤل تنشيطاً لحركة التحولات في الفكر الحديث وإثارة التساؤلات حول ما يطفح فيه من يقينيات جاهزة، ومن أهم هؤلاء المفكر اللبناني الدكتور "علي حرب" و"الناقد السعودي" "عبد الله الغدامي" و"الناقد المصري" الذي يؤلف نتاجاً خاصاً به من التفكيك والتأويل في دوائر الاتصال والقراءة الدكتور "مصطفى ناصف"، وكما أن مشهد التفكيك في الغرب يجعل القواسم المشتركة ضعيفة، فإن مشهد التفكيك العربي يظل بدوره مفككاً.

المراجع

- 1 - الكتابة والاختلاف: دريدا ترجمة كاظم جهاد.
- 2 - التفكيكية: النظرية والتطبيق، ترجمة رعد عبد الجليل جواد.
- 3 - البنيوية وما بعدها: سلسلة عالم المعرفة.
- 4 - النظرية الأدبية المعاصرة: ترجمة د. جابر عصفور.
- 5 - العمى والبصيرة: دي مان، ترجمة سعيد الغانمي.
- 6 - دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي.

نظريات التلقي والقراءة والتأويل

إن الجمع بين هذه العناصر الثلاثة إشكالية أولى، لأنه على وضوح العلاقات القائمة فيما بينها باعتبارها تمثل منظومة متجانسة تقع في دائرة الاعتداد بطرفي العملية التواصلية الأخيرين: النص - القارئ، وتحليل جمالية التفاعل بينهما بتفسير عمليات القراءة وآليات التلقي وإمكانات التأويل؛ برغم ذلك فإن منشأ هذه التوجهات لم يكن متساوياً من الناحية التاريخية، وإنما برزت في إشكاليات التأويل أولاً وتبلورت في عمليات الاعتداد بأنواع معينة من القراءة يقوم بها من يطلق عليهم "القراء النموذجيون" قبل أن يتم إلقاء الضوء بصفة أساسية على جماليات التلقي أو طبيعة الاستقبال الأدبي وعلاقته بإنشاء الدلالة النصية، كما أن هناك إشكالية أخرى تتمثل في اعتبار هذا التيار مما بعد البنيوية، لأن الواقع أنه نشأ موازياً لها وليس منبثقاً عنها، وتوخي في الدرجة الأولى تغطية الجوانب التي أهملتها البنيوية باعتمادها على المحايثة النصية وتجاهلها المعتمد للسياقات التاريخية والاجتماعية الخارجة عن حدود النص، جاء هذا التيار ليستكمل ما أهملته البنيوية وليضع العملية الأدبية في دائرة التواصل الإنساني بالنظر إلى طبيعتها وينقل مركز الثقل من استراتيجية التحليل من جانب المؤلف - النص، إلى جانب النص - القارئ.

وربما كان بوسعنا أن نعتبر مقال الناقد الألماني الشهير "ياوس" في نهاية الستينيات المعنون بـ "التغير في نموذج الثقافة الأدبية" المنطلق الحقيقي لهذا التوجه برمته، إذ إنه ألم بالخطوط الأساسية لتاريخ المناهج الأدبية والنقدية، وانتهى إلى أن هناك بدايات لثورة فعلية في الدراسات الأدبية المعاصرة اعتماداً على فكرتي النموذج والثورة العملية اللتين استمدهما من كتابات "توماس كون" في بنية الثورات العملية؛ بوصفها إنجازاً شبيهاً بإجراءات العلوم الطبيعية، فهو

يؤكد على أن دراسة الأدب ليست عملية تنطوي على تراكم تدريجي للحقائق والشواهد التي يقررها كل جيل من الأجيال المتعاقبة للمعرفة، وحقيقة الأدب أن التطور تشخصه قفزات نوعية ومراحل من القطيعة ومنطلقات جديدة، إن النموذج الذي وجهه البحث الأدبي ذات يوم ما يلبث أن ينبذ عندما يصبح غير قادر على الوفاء بالمطالب التي توسمتها فيه الدراسات الأدبية ويحل نموذج جديد أكثر ملاءمة لهذه المهمة مع استقلاله عن النموذج الأقدم محل أسلوب التناول العتيق إلى أن يثبت مرة أخرى أنه غير قادر على الوفاء بوظيفته في شرح الأعمال الأدبية السابقة على الوقت الراهن، إن كل نموذج لا يحدد مجرد الإجراءات المنهجية المقبولة التي يتناول النقاد نصوص الأدب وفقاً لها فحسب، بل يحدد كذلك المبدأ الأدبي النظري برمته، وبعبارة أخرى فإن أي نموذج بعينه يخلق تقنيات التفسير والموضوعات التي يراد تفسيرها على السواء.

من هنا فإن "ياوس" يحدد العوامل الضرورية أو المطالب المنهجية للنموذج الجديد في ثلاث نقاط:

أولاً: انعقاد الصلة بين التحليل الشكلي الجمالي والتحليل المتعلق بالتلقي التاريخي شأنها شأن الصلة بين الفن والتاريخ والواقع الاجتماعي.

ثانياً: الربط بين المناهج البنيوية والمناهج التأثيرية وهو الربط الذي لا يكاد يلتفت إلى إجراءات هذه المناهج ونتائجها خاصة.

ثالثاً: اختبار جماليات التأثير حيث لا تكون مقصورة على الوصف فحسب بل تتمكن من استخلاص بلاغة جديدة تستطيع أن تحسن شرح أدب الطبقة العليا، بالقدر نفسه الذي تحسن به شرح الأدب الشعبي والظواهر الخاصة بوسائل الاتصال الجماهيرية.

وعندما يتوقف النقاد لرصد العوامل المؤثرة في تكوين نظرية التلقي، فإن "روبرت هولمب" يوجزها في خمسة مؤثرات هي على التوالي:

- 1 - الشكلانية الروسية.
- 2 - بنيوية براج.
- 3 - ظواهرية "رومان انجاردن".
- 4 - هيرمينوطيقا (جادامر).
- 5 - سوسولوجيا الأدب في نهاية الأمر.

وقد اختار هذه العوامل لما لها من تأثير ملحوظ في التصورات النظرية على نحو ما تدل عليه الهوامش والمصادر لدى زعماء نظرية التلقي، ولأنها أضافت ما يساعد على تقديم حلول لأزمة البحث الأدبي بعودتها إلى تركيز الانتباه على العلاقة بين القارئ والنص، وفي معظم الأحوال لأنه كان هناك تأثير مباشر لها على منظري ما يسمى بمدرسة "كونستانس"، بل كذلك إلى المسهمين المعتادين في السدوات نصف السنوية التي كانت تقدم هناك منذ منتصف الستينيات، ولأن هذه المدرسة تبدو كما لو كانت مسئولة عن المبادئ التي أشاعت هذا الاتجاه النقدي في دوائر مختلفة. وبوسعنا أن نقصر من هذه العوامل على الإشارة التي ألققتها بنظريات التأويل وهو ما قدمه "جورج جادامر" في نظريته الهرمينوطيقية، إذ إن بقية الروافد مشتركة مع اتجاهات منهجية سبق التعرض لها من قبل، وأهم ما قدمه "جادامير" هو تحليل الطبيعة التاريخية لعمليات الفهم الأدبي، وإذا كان "هولمب" يلاحظ نوعاً من المفارقة في تأثير "جادامر" في نظرية التلقي فلأنه في أعظم أعماله "الحقيقة والمنهج" قد حاول التشكيك على وجه التحديد فيما يبدو أن كثيراً من مسهمي نظرية التلقي أشد ما يكونون في حاجة إليه ألا وهو "المنهج"، لا لدراسة الأدب وتحليله فحسب بل للوصول إلى الحقيقة المتعلقة بالنص، وبعبارة أخرى فإن حرف العطف في "الحقيقة والمنهج" لا ينبغي أن يفهم بمعناه الرابط، بل بمعناه المفرق، ومع أن الهدف الأساسي الذي يرمى إليه الكتاب في هذا الصدد هو المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية فإن هجوم جادامر على المنهج قابل للتأكيد وللتطبيق كذلك على كثير ممن يدرج ضمن نظرية التلقي. إن المنهج عند "جادامر" هو شيء يطبقه شخص ما على موضوع ما من أجل الحصول على نتيجة بعينها، وفي حالة العلوم الطبيعية، تمّ الربط على نحو مغلوط وفقاً لما يراه "جادامر" بين هذه النتيجة والحقيقة، وقد كان تجديد الهرمينوطيقا وهي علم الفهم والتفسير والتأويل مقصوداً به مواجهة هذا الارتباط الضال وهو موقف مصادم لميل العلم الحديث لاستيعاب الفكر التأويلي وجعله في خدمة العلم.

يطرح جادامر الهرمينوطيقا بوصفها اتجاهاً مصححاً ينتمي إلى نفس النقد من أجل تخطي القيود المحددة لكل محاولة منهجية.

ويؤكد جادامر أن الوعي ذي الطابع التاريخي العلمي هو أولاً - وقبل كل شيء - وعي بالموقف التفسيري، ولكي يوضح ما يعنيه بالموقف التفسيري يقول إنه يمثل مرتكزاً يحدد إمكانية الرؤية ثم يتقدم مستعيراً مصطلحاً من

الظاهراتية يجسد فكرته الأساسية عن الأفق باعتباره ركناً جوهرياً في مفهوم الموقف، وعلى هذا فالأفق يصف مركزنا في العالم ولا ينبغي أن نتصوره على مرتكز ثابت أو مغلق، بل الأصح أنه شيء ندخل فيه وهو يتحرك معناه. ويمكن كذلك تعريفه بالإشارة إلى التحيزات التي نحملها في أي وقت بعينه ما دامت هذه التحيزات تمثل أفقاً لا نستطيع أن نرى أبعد منه، ومن ثم يوصف حدث الفهم في واحدة من أشهر استعارات "جادامر" بأنه امتزاج الأفق الخاص بالفرد المتلقي بالأفق التاريخي المستقبل لنص أدبي ما، على سبيل المثال فكرة أدبية خادعة، فليس هناك خط فاصل بين الأفق الماضي والأفق الحاضر، يقول "جادامر" عندما نضع وعينا التاريخي نفسه خلال الآفاق التاريخية فإن هذا لا يستطيع العبور على عوالم غريبة لا ترتبط على أي نحو بعالمنا، ولكنها مجتمعة تكون الأفق الواحد الكبير الذي نتحرك من داخله والذي يعانق فيما وراء الحاضر الأعماق التاريخية لوعينا الذاتي، إنه أفق واحد في الحقيقة ذلك الذي يعانق كل شيء احتواء الوعي التاريخي.

ومع ذلك فإن هذا الوهم أو هذا الإسقاط للأفق التاريخي هو مرحلة ضرورية في عملية الفهم، إذ يعقبه مباشرة وعي تاريخي يعيد الترابط بين ما كان قد تبينه داخل النظام، لكي يصبح مرة أخرى كياناً متحداً مع ذاته.

ويذهب جادامر إلى أن تداخل الأفق يحدث في الواقع ولكنه يعني أنه عندما يطرح الأفق التاريخي فإنه ينحى في الوقت نفسه على نحو يكاد يكون جدلياً، بحيث يبدو أن الفهم وهو وعي تاريخي قد أصبح واعياً بنفسه.

وكانت جماليات التلقي على نحو ما يسمى "ياوس" نظريته في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات تذهب إلى أن الجوهر التاريخي لعمل فني ما لا يمكن بيانه عن طريق فحص عملية إنتاجه أو من خلال مجرد وصفه، والأحرى أن الأدب ينبغي أن يدرس بوصفه عملية جدل بين الإنتاج والتلقي، فالأدب والفن لا يصبح لهما تاريخ له خاصية السياق إلا عندما يتحقق تعاقب الأعمال لا من خلال الذات المنتجة بل من خلال الذات المستهلكة كذلك، أي من خلال التفاعل بين المؤلف والجمهور. ويسعى ياوس إلى تلبية المطلب الماركسي في الوسائط التاريخية عن طريق وضعه الأدب في سياق أوسع للأحداث، ما أنه احتفظ بالمنجزات الشكلانية عن طريق إحلال الذات المدركة في المركز من اهتماماته، وعلى هذا النحو اتحد التاريخ وعلم الجمال.

يقول "ياوس": تتمثل الدلالة الجمالية الضمنية في حقيقة أن أي استقبال من القارئ لعمل ما يشتمل على اختبار لقيمه الجمالية مقارناً بالأعمال التي قرأت من قبل، والدلالة التاريخية التي فهمت من هذا أن الفهم الأول سيؤخذ به وسينمو في سلسلة من عمليات التلقي من جيل إلى جيل، وبهذا الطريقة سوف تتراكم الأهمية التاريخية للعمل ويتم إيضاح قيمته الجمالية.

وهكذا كان هذا التحول في الاهتمام له دلالاته الضمنية كذلك بالنسبة إلى النمط الجديد من تاريخ الأدب، وما كان "ياوس" يتوسمه هو تاريخ يؤدي دوراً واعياً يصل الماضي والحاضر، وسوف يطلب من مؤرخ التلقي الأدبي بدلاً من أن يتقبل الموروث بوصفه معطى أن يعيد التفكير على الدوام في الأعمال المعترف بها مبدئياً في ضوء كيفية تأثرها بالظروف والأحداث.

إن النقلة من تاريخ تلقي العمل المفرد إلى تاريخ الأدب من شأنها أن تؤدي إلى رؤية النتائج التاريخي بالأعمال وعرضه، فيما تحدد هذه العمال تماسك الأدب وتوضحه إلى الحد الذي يصبح عنده للعمل لدينا معنى بوصفه التاريخي السابق لتجربته الراهنة. بهذا النوع من الممارسة يصبح للأدب معنى بوصفه مصدراً للتوسط بين الماضي والحاضر حين يصبح للتاريخ الأدبي مكان الصدارة في الدراسات الأدبية والنقدية، لأنه يعيننا على فهم المعاني السابقة بوصفها جزءاً من الممارسات.

ويرى بعض نقاد نظرية التلقي أن النص في ذاته ليس له أي قيمة تجريبية باعتباره أحد أطراف التواصل الأدبي، ليس أمامنا في أية حال سوى استخدام النص، أو ما يطلق عليه عملية النص التي تتضمن الإنتاج والتلقي معاً، فالنص المبدئي في ذاته، والذي لم تمسه يد القارئ لا يدخل في مجال البحث، فنحن لا نلقي إلا بالنص المؤول الذي باشره الباحث بالقراءة. وتتكون عملية النص هذه من مجموعة من الأحداث المبسطة أو المتنوعة التي تتضمن تلقي بعض الجماعات للنص عند تقديمه والتعليق عليه، أو ترجمته ومراجعته، للوصول إلى تقييمه في ذاته وعلاقته بنصوص أخرى مستقلة عنه، وعندئذ يتبين لنا أن المهم في حقيقة الأمر ليست علاقة النص بالقارئ بل القارئ بالقارئ، ففي تقدير هؤلاء النقاد لا يتمثل موضوع البحث الآن في النصوص، وخاصة في النصوص المقدمة في شكل كتب، بقدر ما يتمثل في عمليات استخدام النصوص، وبهذا فإن تاريخ التلقي هو الذي يمثل تاريخ الأدب ويعتمد على المراجعة المستقصية للشواهد التاريخية لمختلف القراء، وذلك بهدف بناء

منظومة مركبة من العصور والأجيال المتتالية، لتوضيح كيفية تشكل المراحل وتحول الأذواق، إلى جانب توظيف المعطيات المنهجية المعاصرة من استبيانات وبحوث تجريبية عن عمليات التلقي الأدبي، لوضع الخرائط الكلية للأداب الحديثة، وعندئذ سوف نلاحظ أن انفتاح الأعمال الأدبية بتعدد التأويلات ليس خاصية ماثلة في النصوص ذاتها بقدر ما هو جزء من تاريخها، ومن هنا فإن فهم تاريخ الأدب يتوقف على تحويل الذائقة وكيفية استقبال الأعمال الفنية، حيث تنعكس فلسفة المجتمع وتبرز روح العصر، فماذا يقرأ في فترة معينة من قبل طبقات المجتمع ولماذا يقرأ؟ ينبغي أن يكون السؤال الرئيسي في التاريخ الأدبي، وحسب هذه الرؤية فإن هناك قوى ومؤسسات تسهم في تكوين الذائقة وتطوير حساسيتها من أهمها المدارس والجامعات ووسائل النشر والإعلام التي تسهم في صناعة منظومة القيم الفنية. ويلاحظ على هذه الذائقة أنه تتسم بالديناميكية والقدرة على تجاوز الأوضاع التقليدية للموروثات استجابة للمتغيرات الجديدة.

ومنذ انتشار البنيوية وما بعدها وازدهار نظريات التلقي والتأويل وتحليل النصوص وفقاً لأفعال الكلام تعتبر القراءة نشاطاً خلاقاً مما يجعل من المشروع الحديث عن العمل القرائي في موازاة العمل الأدبي. وربما كان التحديد الذي قدمه "Iser" "أيزر" لفعل القراءة الذي يعتمد على التناغم بين النص والقارئ هو الذي يضع القضية في نصابها الصحيح، فهو يرى أن نماذج النص لا تحيط إلا بطرف واحد من الموقف التواصل، فبنية النص وبنية فعل التلقي يمثلان استكمال موقف التواصل الذي يتم بقدر ما يظهر النص في القارئ متعلقاً بوعيه، هذا التحول من النص إلى ضمير القارئ كثيراً ما يتم تمثله باعتباره مجرد خضوع للنص، لكن الواقع أن النص وهو يشرع في التحول لا يصبح جديراً بذلك ما لم يتخذه الوعي وسيلة لإظهار كفاءته في الالتقاط وإعادة البناء، وكما أشار النص إلى الوقائع المعطاة التي ينتمي إليها عالم السلوك الاجتماعي للمتلقين المحتملين كان قادراً على إنتاج الأفعال التي تقود إلى تأويله، وإذا كان النص هكذا يكتمل بتشكيل معناه الذي يصل إلى مداه بفضل القارئ فإن وظيفته الفعلية حينئذ هي القيام بدور المؤشر لما ينبغي إنجازه ولم يتم إنتاجه بعد.

وإذا كان هذا هو فعل القراءة الخلاق للنص، فإن جهد منظري التلقي قد تركز حول تحديد القارئ، وأمام الصعوبات التي تحول في كثير من الأحيان دون العثور على وثائق تاريخية موضوعية تضيء عمليات تلقي الأعمال فإن

كلا من "ياوس" و"جادامر" قد لجئوا إلى فرضية القارئ الضمني، وتمثل في دراسة أبنية النصوص الأدبية ذاتها لرصد استراتيجيات المرسل التي يتخذها كي يلفت انتباه المرسل إليه، مما يجعله يترك في النص فراغات كأوية تسمح بتنشيط عملية القراءة في التعامل البناء للخلق الفني للعمل، ويلعب "أفق التوقعات" دوراً أساسياً في نظرية التلقي، فبناؤه يعتبر منطلقاً لتصوير النظم الأدبية، وقد استفاد "ياوس" من "كارل بوبر" ومن "مانهاين" حيث يعتبر تحطيم هذا الأفق من السمات النوعية للأدب، وتطلق السيميولوجيا الروسية خاصة "لوتمان" عليه تسمية الشفرة الثقافية وهو مصطلح أكثر حيادية، ولا يرتبط مباشرة بفكرة التجديد، بينما يربطه "ياوس" بالقيمة، مؤكداً أن إعادة بناء التوقعات يعتبر وسيلة للتعرف على الأعمال الفنية المجددة المنحرفة عن الأعراف المستقرة لدى الجماعة، وإذا كانت الثقافة التقليدية هي التي تقيم عادة أفق التوقعات فإن القارئ كثيراً ما يعمل على ملء الفراغات في النص، متتبعاً الاستراتيجيات التي تتمثل فيما يطلق عليه "هيكل التنظيمات" الخاص بكل نص حسب عبارة "آيزر" مما يجعل انحراف العمل عن هيكل هذه التوقعات هو الذي يسمح بقياس مدى قيمته الأدبية، وهكذا تضاف إلى فكرة الأفق فكرة أخرى مكملة لها هي المسافة الجمالية التي يعتمد عليها في مفهوم التقابل.

على أن "آيزر" يضيف إلى مفهوم "أفق التوقعات" فكرة حيوية أخرى فيما يطلق عليه "نقطة الرؤية المتحركة" وهي فكرة ضرورية للتوصيف الدقيق لعملية التلقي الأدبي. فالنص لا يمثل سوى مجرد افتتاحية للمعنى، ولسنا في موقف يسمح لنا أن نتمثله في مرة واحدة، على عكس ما يحدث عند تلقي الأشياء، إذ بينما تقوم الأشياء حيالنا باعتبارها كلا مرة واحدة "نظرة الجشطالت" فإن النص لا يمكن انفتاحه كموضوع إلا في المرحلة النهائية للقراءة عندما نجد أنفسنا غارقين فيه، فبدلاً من علاقة ذات موضوع الخاصة بالإدراك، فإن القارئ باعتباره نقطة من المنظور يتحرك خلال الموضوعات، إنه يمثل نقطة رؤية متحركة داخل ما يجب عليه تأويله وهذا ما يحدد فهم الموضوعات الجمالية في النصوص الأدبية. وهناك فكرة أخرى ذات أثر بالغ في جماليات التلقي هي فكرة "التماهي" وقد نماها "ياوس" ووضع لها خمسة مستويات وهي:

أولاً: التداعي، ويعتمد على علاقة اللعب والصراع ويشعب بشكل إيجابي متعة الوجود الحر، وإن كان يقع سلبياً في جانب الإفراط.

ثانياً: الإعجاب، ويقوم على علاقة البطل الشامل سواء كان قديساً أو حكيماً ويشبع إيجابياً متعة المنافسة وسلباً التقليد ورغبة الهروب.

ثالثاً: الجاذبية، وهي خاصية البطل الناقص وتثير الاهتمام الأخلاقي والتضامن، لكنها تقع سلبياً في العاطفة والرغبة في العذاب.

رابعاً: التطهير، يحدث مع البطل المضطهد أو المعذب ويثير الاهتمام والأحكام الأخلاقية، لكنه يؤدي سلبياً إلى الفضول والهزء.

خامساً: السخرية، وتحدث مع البطل المضاد وتشبع حس الإبداع وتنمية الإدراك الحسي والتأمل النقدي، لكنها تجنح إلى المثالية الفلسفية.

هذه النظرية في مستويات التماهي مع البطل لدى المتلقي ينبغي أن تفهم باعتبارها مجموعة من وظائف التجربة الجمالية التي قد تبدو مجتمعة في كل عصر، كما يمكن لها أن تدخل في علاقات حرة من السبب والنتيجة.

وقد أدرك "ياوس" أن تطور دراسات التلقي تمثل إسهاماً في نظرية الاتصال، وتقصّد في الدرجة الأولى إلى تقدير وظائف الإنتاج والتلقي والتفاعل، برد الاعتبار إلى القارئ والسامع والمشاهد وهم المتلقون في الدراسات الأدبية، وأن هذا يفتح على ما يحدث في المجالات المعرفية الأخرى، بغية الوصول إلى نظرية عامة في الاتصال متداخلة الاختصاصات تشتمل على رؤية إنسانية متكاملة.

وبوسعنا أن نشير في نهاية الأمر إلى بعض الإسهامات الغربية الأخرى في نظريات التلقي وخاصة عند النقاد الأمريكيين في مقدمتهم "ستتالي فس" في تجربة القراءة، و"جوناثان كوللر" في أعراف القراءة وغيرهم من النقاد الأوربيين.

المراجع:

- 1 - نظرية التلقي: روبرت هولمب، ترجمة د. عز الدين إسماعيل - النادي الأدبي بجدة.
- 2 - شفرات النص: د. صلاح فضل.
- 3 - النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة د. جابر عصفور.



الفصل التاسع

علم النص

هو آخر المناهج حتى الآن، ولا يرجع ذلك إلى المستوى الزمني في ظهوره في الآونة الأخيرة عند نهاية القرن فحسب، بل يعود كذلك إلى أنه أكثر المناهج المعاصرة تبلوراً وإفادة من المقولات السابقة عليه واستيعاباً لها، لإدراجها في منظومته العملية بعد أن كانت مبعثرة في أشتات مبعثرة.

وهناك تعريفات عديدة تشرح مفهوم النص عامة، وأخرى تبرز الخواص النوعية الماثلة في بعض أنماطه، خاصة الأدبية، لكن التجربة النقدية تشير دائماً إلى عدم كفاية التعريفات، فعلياً أن نتبنى موقفاً آخر يقيم تصوراً للنص من جملة المقولات التي قدمت له في البحوث الدينية والسيميولوجية الحديثة، دون الاكتفاء بالتحديدات اللغوية البحتة. ولعل تعريف "كرستيفا" للنص يكون أكثرها تمثلاً لهذه المقاربات، فهي تشير إلى أنه "جهاز عبر لغوي، يعيد توزيع نظام اللغة، وذلك بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيراً إلى بيانات مباشرة تربطها أنماط مختلفة من الأقوال السابقة عليها والمتزامنة معها".

والنص بذلك يعتبر عملية إنتاجية تعني أمرين:

الأول: علاقته باللغة التي يتموقع فيها، إذ تصحب من قبيل إعادة التوزيع عن طريق التفكير وإعادة البناء، مما يجعله صالحاً لأن يعالج بمقولات منطقية ورياضية أكثر من صلاحية المقولات اللغوية الصرفة له.

الثاني: يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى، بتحديد البعض الآخر ونقضه، وترتبط بهذا المفهوم عندها فكرة النص باعتباره وحدة أيديولوجية، على أساس أن إحدى مشكلات السيميولوجيات آنذاك تصبح طرح التقسيم البلاغي القديم للأجناس الأدبية لتحل محله عمليات تحديد لأنماط

النصوص المختلفة، بالتعرف على خصوصية النظام الذي يهيمن عليها في سياقها الثقافي الذي تنتمي إليه.

وبهذا فإن النقاط النظام النصي المعطى، كممارسة سيميولوجية للأقوال وللمتأليات التي يشملها في فضائه، أو التي يحيل إليها فضاء النصوص ذاتها، يطلق عليها وحدة إيديولوجية.. وهذه الوحدة هي وظيفة التناص التي يمكن قراءتها مجسدة في مستويات مختلفة، ملائمة لبنية كل نص وممتدة على مداره، مما يجعلها تشكل سياقه التاريخي والاجتماعي.

يلاحظ هنا أن مفهوم علم النص يستوعب العناصر الداخلة في تشكيل النص والمرتبطة بالإطار الخارجي المحيط به، بقدر ما تتبدى فاعليتها في هذا التشكيل، فلا يعنيه الاستطراد الخارجي عن السياقات التاريخية والاجتماعية والنفسية، بقدر ما يعنيه الحضور النصي لهذه السياقات وتحليل معطياتها.

ويعلق "بارت" على هذا التحديد النصي مشيراً إلى أن نظرية النص هي أولاً نقد مباشر لأية لغة واصفة، أي إنها مراجعة لعملية الخطاب، ولذلك التمسست تحولاً علمياً حقيقياً. وقد تبلور مفهوم النص عنده في أحد كتبه عام 1971 بعنوان "من العمل إلى النص". قدم فيه نظرية مركزية عن طبيعة النص من منظور تفكيكي في المرتبة الأولى، وموجزها:

1 - في مقابل العمل الأدبي المتمثل في شيء محدد وتقترح مقولة النص التي لا تتمتع إلا بوجود منهجي فحسب، أي أنها تشير إلى نشاط وإلى إنتاج، وبهذا لا يصبح النص مجرداً كشيء يمكن تمييزه خارجياً، وإنما كإنتاج متقاطع يخترق عملاً أو عدة أعمال أدبية.

2 - النص قوة متحررة، تتجاوز جميع الأجناس والمراتب المتعارف عليها لتصبح واقعاً نقيضاً يقاوم الجهد وقواعد المعقول والمفهوم.

3 - يمارس النص التأجيل الدائم واختلاف الدلالة، فهو تأخير دائم مبيت مثل اللغة، لكنه ليس متمركزاً ولا مغلقاً، إنه لا نهائي، لا يحيل إلى فكرة معصومة، بل إلى لعبة متنوعة ومخلوعة.

4 - إن النص وهو يتكون من نقول متضمنة وإشارات وأصداء للغات أخرى وثقافات عديدة، تكتمل فيه خارطة التعدد الدلالي، وهو لا يجيب عن الحقيقة وإنما يتبدد إزاءها.

5 - إن وضع المؤلف يتمثل في مجرد الاحتكاك بالنص، فهو لا يحيل إلى مبدأ النص ولا إلى نهايته، بل إلى غيبة الأب، مما يمسح مفهوم الانتماء.

6 - النص مفتوح يتجه إلى القارئ في عملية مشاركة وليست مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، لأن ممارسة القراءة إسهام في التأليف.

7 - يتصل النص بنوع من اللذة الشبقية المشاكلة للجنس، فهو إذن واقعة غزلية.

وتعد مجموعة المبادئ هذه لونا من التطبيق المبكر لمفاهيم التفكيكية، وجماليات القراءة، وتفتح آفاقاً حركية متجاوزة لفكرة النص، بالتركيز على ديناميته، وإذا كان مفهوم النص يعني أن يبدأ التحليل بالوحدة الكبرى التي ترسم حدودها عن طريق تعيين الفواصل والقواطع الملموسة لها فإن علينا التضحية بفكرة الطول في سبيل الوصول إلى النص المستدير المكتمل، الذي يحقق مقصدية قارئه في عملية التواصل اللغوي.

وقد تستخدم هنا فكرة انغلاق النص على نفسه كمحور لتحديد اكتماله، لا بمعنى عدم قبوله للتأويلات الحرة، وإنما بمعنى اكتفائه بذاته، فيصبح النص "هو القول اللغوي الأدبي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالاته" فما يحقق هذا الشرط. مهما كان طوله يعد نصاً. وعندئذ يصبح التحليل هو مقياس الوحدة الكبرى النصية التي تقوم كمنطق لا محيد عنه لفحص ما تحتها من مستويات؛ بمعنى أن النص الأدبي لا يمكن اعتباره مجرد ممارسة محررة للنص اللغوي فحسب، بل هو رسالة ناجمة عن نظام معين من المفاهيم والشفرات. وبالفعل فإننا بدون أن نتبنى المستوى التعبيري للغة الأدبية، الذي يعتمد على الشفرة اللغوية لابد أن تبرز في النص الأدبي الخواص الناجمة عن جملة من عمليات التفسير وعلاقتها الجدلية وتراكباتها البنيوية، مما يجعلها تؤول شفرة أدبية عامة يعتمد عليها في تحديد الأجناس والعصور الأدبية.

ومعنى هذا أننا عندما نتحدث عن نص أدبي فإننا نحيل إلى أفق خاص له حدود معينة، وتتجلى في هذا الفضاء مجموعة من الدلالات التي يسمح بها النص، وهي دلالات يتعين على القراءات النقدية تحديد مكوناتها وكشفها وتفسيرها بمنظور أسلوبى أو بنيوي، أو سيميولوجي، حيث تمثل شبكة من التقنيات الفنية المحددة بالاستعارات والرموز وأشكال التكرار والتوازي والإيقاع والصور النحوية والشفرات السردية، مما يتميز به النص الأدبي عن النصوص

اللغوية الأخرى، ويدعو قارئه إلى أن يتبين فيه دلالات مفتوحة غير أحادية منسجمة على شكل الخطاب ومرتبطة في الآن ذاته بطبيعته الشعرية.

ويتخذ الباحث الروسي "لوتمان" منظوراً أكثر شمولاً عندما يدرج مفهوم النص في تصوراته عن الفن، فيرى أن تحديد النص يعتمد على المكونات التالية:

1 - التعبير:

فالنص يتمثل في علاقات محددة تختلف عن الأبنية القائمة خارج النص، فإذا كان هذا النص أدبياً فإن التعبير يتم فيه أولاً من خلال علامات اللغة، والتعبيرات تجبرنا على أن نعتبر النص تحقيقاً لنظام وتجسيداً مادياً له، وطبقاً لثنائية "سوسير" الكلام في مقابل اللغة فإن النص دائماً ينتمي إلى مجال الكلام الفردي.

2 - التحديد:

وهو لازم النص، أي أنه لا بد من توفر بداية ونهاية له، وهو بهذا المعنى يقوم مقابل جميع العلامات التي لا تدخل في تكوينه، طبقاً لمبدأ التضمن وعدم التضمن. كما أنه من ناحية أخرى يقوم في مقابل جميع الأبنية التي لا يبرز فيها ملمح الحد.

وكما برهن الباحثون فإن النص يحتوي على دلالات غير قابلة للتجزئة، مثل أن يكون قصة أو رواية أو مسرحية أو قصيدة أو وثيقة، مما يعني أنه يحقق وظيفة ثقافية محددة، وينقل دلالاتها كاملة غير منقوصة، والقارئ يعرف كل نص من هذه النصوص بمجموعة من الخصائص، ولهذا فإن نقل سمة ما إلى نص ينتمي إلى نوع آخر إنما هي وسيلة جوهرية لتكوين دلالات جديدة، وذلك مثل سمة الوثيقة التي قد تنتقل إلى العمل الأدبي وتوجه دلالاته. ويؤدي تراتب النص وانقسامه إلى نظم فرعية مترابطة إلى قيام مجموعة من العناصر التي تنتمي إلى بنيته الداخلية كحدود واضحة لأنماط مختلفة، وذلك مثل حدود الفصول والمقاطع والأشطار والأبيات وال فقرات.

3 - الخاصية البنيوية:

فالعامل لا يمثل مجرد متواليه من الفقرات، بل يتضمن تنظيمياً داخلياً يحيله إلى مستوى متراتب أفقياً ومبنيماً في جملته. فبروز البنية شرط أساسي لتكوين النص... ولهذا فإذا أردنا التعرف على نص أدبي مكون من مجموعة من جمل

اللغة الطبيعية كان من الضروري أن نلمس تشكيلها لبنية من نمط ثان على مستوى التنظيم الفني، ومن الواضح أن هذه الخاصية البنيوية ترتبط بقوة بخاصية التحديد السابقة.

ويبدو أن هذا الطابع التركيبي للنص لا يقتضي اتخاذ معيار متصلب للامتداد الطولي، فالنص الأدبي يمكن أن يكون رواية مؤلفة من مئات الصفحات أو بيتاً واحداً من الشعر، غير أن الرسالة التي يتضمنها كل من النصين تنحصر في حدودها، بحيث لا يمثل الامتداد الطولي عاملاً جوهرياً في القيمة النوعية أو الشعرية للنص، بل يصبح مجرد خاصية تتعلق بطريقة تراكب الأبنية الصغرى والكبرى المتصلة بمختلف الأجناس الأدبية.

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية في تحديد النص وهي ما يتصل بالعنوان الموضوع له، فعن طريق العنوان تتجلى جوانب أساسية أو مجموعة هامة من دلالات النص الأدبي وإشاراته الرمزية... ومثل هذا قد يحدث في بقية النصوص الصحفية مما يجعل العنوان فيها عنصراً موسوماً ومكثفاً.

وليس هذا معناه أن جميع التحليلات النصية لا بد أن تشمل العنوان، بل على العكس من ذلك نجد أن اختيار العنصر الموجه للدلالة يمثل تحدياً للمحلل واختباراً لاستراتيجيته، وهناك سمة أخرى للنص الأدبي شغلت البنيويين ومن بعدهم، وهي علاقة النص بالكتابة، وارتباطهما معاً بمصطلح الخطاب. بحيث يعتبر من هذا المنظور حالة وسطية تقوم بين اللغة والكلام، وهذه السمة ذات أهمية خاصة في عمليات الفهم والتأويل، أي في عمليات إنتاج النصوص وإعادة إنتاجها، وفي هذا الصدد يقول "ريكور": لنطلق كلمة نص على كل خطاب ثم تثبيته بواسطة الكتابة، وأن هذا التثبيت أمر مؤسس للنص ذاته ومقوم له، وعلى هذا فإن مفهوم النص ينطوي على أن الرسالة المكتوبة مركبة مثل العلامة، فهي تضم من جهة مجموعة الدوال بحدودها المادية من حروف متسلسلة في كلمات وجمل ومنتاليات، ومن جهة ثانية تضم المدلول بمستوياته المختلفة.. ويمكن أن نخلص من كل ذلك إلى أن مفاهيم النص لها تصوران كبيران:

أحدهما استاتيكي ثابت، والآخر ديناميكي متحرك، وبوسع التحليل متابعة هاتين الاستراتيجيتين، على أن التحولات النصية لا تقوم كلها في مستوى واحد، بل هناك درجات عديدة التناص يمكن أن يقودنا إليها التحليل النصي، فهناك مثلاً خواص شكلية محددة مثل الإيقاعات والأوزان والشخصيات يمكن

استخدامها كحد أدنى للتناص على افتراض ما يلزمه استعمالها وتوظيفها من أعراف خاصة بكل جنس أدبي على حدة.

وفي محاولة التعرف على المقاربات المختلفة لمفهوم النص وخصائصه نجد أن مصطلح السياق لا بد أن يبدأ بالسياق النفسي الذي يتم فيه إنتاج النص وفهمه وإعادة تكوينه لدى المتلقي، مما يجعل المشكلة الجوهرية التي يتركز فيها البحث في تأويل النصوص، ويستخدم مصطلح التأويل للدلالة على التأويل الشكلي من ناحية والتأويل السيكولوجي المرتبط بالمعرفة من ناحية ثانية.

وانطلاقاً من هذا التصور يمكن القول إن البيانات المتضمنة في النص تختزن في الذاكرة، وتكمن المشكلة حينئذ في معرفة أنماط البيانات المخترنة وكيف ترتبط هذه العملية وقوانينها بفهم النص ذاته. ماذا يحدث للمعلومات المخترنة؟.

هذه المعلومات ننساها، ولكن يظل جزء منها حاضراً في الذهن، ولذا ينبغي التساؤل عن المعلومات التي تنسى وتلك التي تحتفظ بها، كما أن علينا أن نعرف إن كان صحيحاً أن بعض المعلومات تظل محفوظة يمكن استدعاؤها، وكيف يتسنى لنا العثور عليها واستحضارها بفعالية لفهم نصوص أخرى، فبعد كل شيء تظل إحدى الوظائف الجوهرية لديناميكتنا النفسية تتمثل في إمكانية استثارة معلومات ما في ظروف ما عن طريق تذكرها.

هنا نتساءل: ما الذي نتذكره من النص بعد سماعه، أو قراءته؟ إن العلم الذي يجيب عن هذه الأسئلة هو علم نفس المعرفة، ويمكن وصف مجاله بالإشارة لاتصاله بحقول الوظائف النفسية التي تعد أشد تركيباً وسمواً كالفهم والكلام والتفكير والتخطيط.

ويتعين علينا توظيف جميع الإجراءات التي ينتهي إليها علم نفس المعرفة بانتظام وتدرج لتحليل السياق الإدراكي لفهم النصوص الأدبية.

ينتقل - فان ديجك - وهو أهم علماء النص المحدثين لتحليل السياقات الثقافية الفاعلة في تكوين النصوص الأدبية وشرح طريقة مقاربتها، وذلك بتتبعه خواص الأبنية الأسلوبية وعلاقتها بمختلف أنواع السياقات، لا لفهم النص فحسب، وإنما لفهم وتحليل مختلف وظائفه، وبهذه الطريقة فإن التحليل النصي لا يقارب من العوامل الاجتماعية المشتتة وغير المتجانسة بطبيعتها إلا تلك المظاهر التي تقوم بدور بارز في الإدراك، سواء كان ذلك بالنسبة لمنتج النص



عند إجرائه للتشكيل الدلالي والجمالي أو بالنسبة لمتلقي هذا النص عند ممارسته لفك شفرائه واستقبال بياناته.

فما يدخل في هذه العمليات هو القدر الذي يستصفيه علم لغة النص من السياقات الخارجية ليوجه إليه عنايته الخاصة.

وإذا كانت العلوم المختلفة تعنى بوصف النصوص فإن ذلك يتم وفقاً لمنظوراتها ووجهاتها المحددة، ففي بعض الأحوال يتركز البحث على الأبنية النصية المتباينة وعلى وظائف النصوص المختلفة تداولياً أو جمالياً. وتتمثل مهمة علم النص الحديث في وصف علاقات الأبنية النصية بجميع مستوياتها، ثم شرح الأشكال المتعددة لأنماط التواصل وطرق استخدام اللغة لملء فجوة التحليل النوعي للنصوص الأدبية وأبنيتها. وهناك مجموعة من العمليات الضرورية للقيام بالتحليل الدلالي الداخلي للنص على أساس تجريده من روابطه الخارجية، وهي بإيجاز:

1 - تقسيم النص إلى مستويات طبقاً لمستويات العناصر المكونة له تركيبياً، كالأصوات والبنى الصرفية والمعجمية والأبيات والمقاطع بالنسبة للنص النثري في مقارنة أولية.

2 - تقسيم النص إلى مجموعة أو مجموعات طبقاً للعناصر والوحدات المكونة له دلالياً، مثل نمط الشخصيات أو غيرها، وهذه العملية مهمة في التحليل السردى.

3 - الفصل بين كل الثنائيات التكرارية من المتعادلات وبين كل الثنائيات المترابطة.

4 - توضيح الهيمنة المتبادلة للثنائيات الدلالية، وتحديد التعارضات الدلالية القائمة بينها وعلاقتها بالترابكات النحوية.

5 - تقسيم البنية المنبثقة من هذا التكوين التركيبى والانحرافات الدالة فيها، مما يؤدي إلى اختيار الدلالة الناجمة عنها، ويسمح بالتالي بتقديم هيكل عام للنص، وعندئذ تتجلى ضرورة استخدام الأبنية المكونة للكشف عن الأبنية الدالة.

ولعل أوضح بيان تخطيطي لهذه المستويات يتجلى فيما يطلق "قان ديجك" عليه مكعب البنية النصية، ويتمثل في أبعاد ثلاثة هي: المستوى، والمجال، والشكل.

ويتكون المستوى من ثماني درجات، والمجال، وهو الأوسط في الرسم التوضيحي للمكعب فهو يتكون من ثلاثة عناصر، وأما الشكل وهو الأيسر فيتكون من أربعة عناصر، وينتج ضرب هذه العناصر $8 \times 3 \times 4 = 96$ وحدة تضمن مجمل عناصر البنية النصية وما يقوم بينها من علاقات.

وهناك توضيح مفصل لها في كتابنا عن "بلاغة الخطاب وعلم النص" يمكن الرجوع إليه لاستيفاء الإشارات المتعلقة بهذا المنهج الأخير من مناهج النقد المعاصر ومعرفة كيفية احتوائه لأهم المحددات المعرفية المبنوثة في مناهج النقد الحداثي وتوظيفها في منظومة كلية متجانسة ومتنامية في الآن ذاته.

القرن الذهبي للنقد العربي

إذا أردنا أن نستطلع المشهد الجامع للنقد الأدبي عند مفترق القرنين كان علينا أن نتذرع بلون من التاريخية الجديدة، التي أخذت تتشكل ضمن التيارات المحدثّة في الفكر الأدبي، وتعتمد بعض المقاييس الكمية والمؤشرات النوعية، لتتبين مدى ازدهار الإنتاج الثقافي عامة، والإبداعي خاصة في الحياة الأدبية، وارتباطه الجذري بعصبه الحساس المتمثل في النقد الأدبي، باعتباره البؤرة الجامعة لعدد من الدوائر المحيطة به، والمنزاحة في مختلف مظاهره العقلية والإبداعية.

وربما كانت القراءة التاريخية لأعداد المتخصصين وأنماط كتاباتهم النقدية من ناحية، وتصنيف موجاتهم المتداخلة وأجيالهم المتتابعة من ناحية ثانية، أن تعتبر المدخل الصحيح لتشكيل هذا المشهد وتحليل خطوطه الأساسية.

وقد كان لدى الباحثين انطباع عام مبهم بأن مفصل القرنين الثالث والرابع الهجريين يمثل العصر الذهبي الأول للثقافة العربية، خاصة في الإنتاج الأدبي والنقدي، دون أن يقوم دليل ملموس على ذلك، وقد أتيت لي بصفة شخصية خلال الإسهام في التحضير لموسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين التي تعدها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن أتبين المشهد بتفاصيله الإحصائية الدقيقة، فقد أخذت في إعداد القوائم المبدئية لعدد من النقاد العرب في كل العصور حتى من رحلوا قبل نهاية القرن العشرين، وكانت أمامي ثلاث مفاجآت بارزة.

أولها: أن عدد المشتغلين بنقد الأدب ودراسته وتحليله وتقييم مستوياته أقل بكثير مما كنا نتوقع، فقد اتفقنا على أن نقتصر في المرحلة الأولى على أكبر



الأعلام في النقد الأدبي والبلاغة وعلوم الأدب، بحيث لا يزيد كل فرع من هذه الأفرع الثلاثة عن مائتي اسم قد نكملهم فيما بعد بمن يليهم في الأهمية، وكانت دهشتي بالغة لأن عدد النقاد في كل العصور لم يتجاوز المائة إلا بقليل - مائة وعشرون تحديداً - مع التسامح في اعتبار بعض المؤلفين نقاداً وغير محسوبين في زمرة من يعتد بإنتاجهم النقدي.

وثانيهما: أن 25% من هذا العدد قد تركزت تواريخ وفاتهم في القرن الرابع الهجري و25% منهم في القرن العشرين، والنصف المتبقي يتوزع على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، ومعنى ذلك من الوجهة الكمية أن هناك عصرين ذهبيين للنقد الأدبي، هما القرن الرابع الهجري والعشرون الميلادي، تكتفت فيهما نسبياً أعداد النقاد وتعددت مؤلفاتهم في دراسة الأدب وظواهره المختلفة.

ثالثهما: قد يكون هناك معامل ارتباط منتظم بين الإبداع الأدبي والكتابة النقدية، فكلتا الفترتين قد شهدت أيضاً كبار شعراء العربية وكتابها المؤثرين في حركتها الثقافية العامة، وإن كانت خارطة توزيعهم زمنياً تقدم بعض المغايرات الواضحة عن نظيرتها النقدية، لكن توهج الفكر الأدبي بجناحيه الإبداعي والتحليلي يقدم جدلية محكمة مسبوكة.

وقد يجوز لنا أن نستخلص على مستوى آخر نتيجة كيفية لهذه الأرقام، ترتبط باستراتيجية الثقافة العربية في هذين القرنين وطبيعة علاقتها الإنسانية، فاللافق للنظر أنهما عرفا أكثر أنواع التواصل احتداماً وتفاعلاً مع الثقافات الأجنبية؛ الفارسية واليونانية القديمة والهندية في القرن الرابع الهجري، والثقافات الغربية بتجلياتها المتنوعة في القرن العشرين، وربما كانت علاقة الفكر الإبداعي بالثقافات الأجنبية علاقة جدلية مركبة وملتبسة تحتمل التأويل، لكن الفكر النقدي فيما يبدو للعيان لا يمكن له أن ينمو محققاً إنجازات يعتد بها ما لم يستوعب في حركته خلاصة التناقص الخلاق مع الحصد المعرفي الإنساني كله.

ونستطيع أن نولد من هذه النتيجة فكرة متممة لها، وهي أن كبار النقاد العرب، المؤثرين في تطوير الخطاب النقدي لمن جاء بعدهم يمثلون غالباً أحوالاً "مفصلية" واضحة، تلتقي فيها الأعراف الثقافية المهجنة، البعيدة عن نظرية الصفاء الفكري والأصالة الراضية للتطعيم، فأكثر العلماء حرصاً وحفاظاً على التقاليد القومية المتوارثة لا يضيف شيئاً يعتد به، ولا يعتبر علامة

دالة على مسار التطور العلمي والمعرفي، وأصحاب التأثير الحقيقي هم الذين تتم على أيديهم أبرز التحولات المعرفية المنهجية.

لكن علينا أن نقف عند هذا الحد في الاستنتاج، لنحاول إلقاء نظرة كلية على حصاد القرن الأخير في الحركة النقدية العربية، ولعل النموذج الذي يسمح لنا باستجلاء خطوطه الكبرى أن يكون هو "النموذج المهجور" في الدراسات الأدبية، مع أنه لم يأخذ حقه لدينا في التحليل والتنمية والبعث والتفلسف كما أخذته في الأدبيات الغربية وهو "نموذج الأجيال".

وقد أتيت لي أيضاً أن أقاربه في الآونة الأخيرة في بحث مطول أكتفي هنا بتوظيف خلاصته على حالة النقد العربي المعاصر، على اعتبار أن "الجيل" مقولة تقديرية، تشمل منظومة من الشخصيات المحورية، تقوم بدور قيادي في توجيه استراتيجية الثقافة والإبداع، وذلك بالتفاف حول هدف رئيسي، تحت زعامة ضمنية لأحدهم، مع تقاربهم في العمر بفوارق لا تتجاوز العقد الواحد، وتجانسهم في التوجه العام، مع الحفاظ على اختلافاتهم الفردية، وهم يشغلون الحياة العامة لمدة ثلث قرن تقريباً، قبل أن يسلموا الراية للجيل التالي لهم، والمتداخل نسبياً معهم.

ومعنى ذلك أن القرن العشرين يمكن توزيعه نقدياً على ثلاثة أجيال، تناوبت أداء رسالتها خلاله، وتعددت اتجاهاتها بطوله، وقدمت عطاءها عبر تحولاته الكبرى، وليس من الضروري أن يكونوا جميعاً قد ولدوا فيه أو رحلوا خلاله، بل لا بد للأول منهم أن يكون قد ولد قبله، وللأخير أن يكون مستمراً في الوجود بعده، فهذا هو منطلق الأجيال الطبيعي.

جيل الأساتذة

وهو جيل الرواد الذين ولدوا حول العقد الأخير من القرن الماضي حيث شهد عام 1889م على وجه التحديد مطلع معظمهم: طه حسين، عباس محمود العقاد، ميخائيل نعيمة، وقبلهم بقليل ولد عبد الرحمن شكري وأحمد أمين، ومن بعدهم جاء إبراهيم عبد القادر المازني وزكي مبارك وأمين الخولي، وربما كان عقد العشرينيات من هذا القرن هو الذي شهد انبثاق توهجهم الفكري، فقد صدر فيه كتاب الديوان للعقاد والمازني 1921 والغربال لميخائيل نعيمة عام 1923، وفي الشعر الجاهلي لطلح حسين عام 1926، ومن قبل ذلك مقدمات شكري لدواوينه، وغيرها من الأعمال التي أسست لمنظور نقدي جديد في الأدب والثقافة، اعتمد على إعادة قراءة التراث الإبداعي في ضوء التيارات المنهجية



الحديثة ووضع المخططات الأولى لتاريخ الأدب العربي بإبراز أقوى نماذجه وشخصياته، وارتداد آفاق الأجناس الأدبية المحدثه إبداعياً ونقدياً في القصة والرواية والمسرح، وقبل ذلك توظيف الأدب والنقد لدينامية النهضة العربية، باعتباره حامل رسالة في التقدم الثقافي والاجتماعي، وصاحب دور خلاق في قيادة الفكر وتوجيه الحياة العامة بمختلف مظاهرها وفعاليتها.

وربما جاز لنا أن نختص منهم ثلاثة أعلام بإشارات وجيزة، لأنهم يلخصون إنجاز الجيل بأكمله، على سعة الفروق الفردية بينهم، وتعدد الشواغل الدراسية والفكرية والإبداعية لكل منهم، وهم طه حسين، والعماد ونعيمة؛ إذ قاموا بدور رئيسي في تطوير مفاهيم الأدب، وتنمية الفكر النقدي، وتأسيس الوعي المنهجي بالأدب تاريخاً وتحليلاً.

قدم طه حسين مفهومه الجديد للأدب باعتباره "ما يؤثر من الشعر والنثر، وما يتصل بهما لتفسيرهما، والدلالة على مواضع الجمال الفني فيهما" مقسماً الأدب إلى إنشائي - إبداعي: وهو هذه الآثار التي يحدثها صاحبها لا يريد بها إلا الجمال الفني في نفسه، لا يريد بها إلا أن يضيف شعوراً أو إحساساً أحسه، أو خاطراً خطر له، في لفظ يلائمه رقة وليناً وعذوبة، أو روعة وعمقاً وخشونة.. أما الأدب الوصفي فهو الذي يتناول الأدب الإنشائي مفسراً حيناً ومحللاً حيناً آخر، وربما اتفق الناس على أن يسموه نقداً.

طه حسين كان يمزج إذن بين النقد وتاريخ الأدب في هذا المشهد الذي كتبه في العشرينيات، لكنه لا يلبث أن يطور هذه المفاهيم في دراساته اللاحقة، وإن كان اعتماده في النقد والتحليل ظل ينصب على تشكيل مزاج بسيط، يجمع بين البحث الموضوعي والانطباع الذاتي المعتمد على الذوق الشخصي، فالعملية النقدية كما يصفها، متبعاً منهج أستاذه "لانسون" تمر بمراحل من اكتشاف النص وتحقيقه، وقراءته وتحليله، وهذه عملية إعداد تسبق القسم الفني الذي يتجلى فيه ذوق الناقد وتظهر شخصيته، "فالناقد قد لا يستحسن قصيدة من شعر أبي نواس مثلاً إلا إذا لاءمت نفسه ووافقت عاطفته وهواه، ولم تثقل على طبعه، ولم ينفر منها مزاجه الخاص" أي أنه بعبارة أخرى محادثة لا بد له أن يتماهى مع الإبداع الذي يقدمه.

ولا يمكن لنا أن نمضي في هذا السياق المقتضب لتتبع نظرية طه حسين الأدبية، ولا قراءة تطبيقاته النقدية، ولا وصف إنجازاته الضخمة في الفكر الأدبي عامة، فقد كان أستاذاً للأجيال التالية، ورمزاً للعقل النقدي الجديد.

أما العقاد فقد توزعت جهوده الخلاقة على عدة ميادين متفاوتة، أهمها الفكر الأدبي إبداعاً شعرياً عالياً، ونقداً حاداً لاذعاً، يليها الفكر الثقافي التاريخي، سواء منه ما سيتصل بالإسلام أو بالثقافة الإنسانية عامة، وربما كان العقاد بكل طاقاته الخصبة المنتجة أعتى أبناء جيله، وأكثرهم حدة في نقض مخالفه، تصدى في شبابه لهدم أمير الشعراء، أحمد شوقي وقاد أعنف حملة نقدية ثورية في مطلع القرن لتفسير مفهوم الشعر وتحويل وظائف الأدب، نصّب نفسه معلماً لشوقي فخاطبه قائلاً: "اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعدها ويحصي أشكالها وألوانها، وأنه ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبهه، وإنما مزيته أن يقول ما هو؟ ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به.. بقوة الشعور ويقظته وعلمه واتساع مداه ونفاذه إلي صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه، ولهذا — لا لغيره — كان كلامه مطرباً مؤثراً، وكانت النفوس تواقه إلى سماعه واستيعابه، لأنه يريد الحياة حياة كما تزيد المرأة النور نوراً".

لكن العقاد لم يلبث في مراحل الناضجة أن قام بتنمية منظوره عن الفردية الضرورية في الإبداع، والحرية اللازمة لتحقيق الجمال في الحياة والفن، باعتبار أن الحرية هي التي تتجسد فيها أعلى مراتب الجمال التي لا تناقض النظام، فالحرية هي أن تختار، والفوضى هي أن تفقد كل اختيار.

وربما كان العقاد أكبر عقل عربي ثقافي في القرن العشرين، حيث تمثل بوعي نافذ خلاصة المعارف والنظريات والفنون والآداب، لكنه تحيز لبعضها على حساب البعض الآخر، فظل يزهو بشعره الفكري المتفلسف الذي لم يدخل في الضمير الأدبي لقراء العربية، كما ظل يرتفع على الرواية باعتبارها "قنطاراً من الخشب" الذي لا يتضمن أوقية من سكر الشعر، محكوماً بتجربته المحدودة في تأليفها، ولم يكد ينتصف القرن حتى كانت دورة التطور قد وضعت على رأس محاربي التجديد الذي دعا إليه بشدة في شبابه، لكن صرامته الفكرية وقوته الجدلية قد جعلته من أبرز ممثلي الفكر النقدي في هذا القرن.

ومع أن ميخائيل نعيمة ينتمي إلى هذا الجيل الأول من رواد الأدب والنقد، ألا أنه تفرد بتربيته المخالفة لهم، فقد تخرج في دار المعلمين الروسية بالناصرية، وسافر خمس سنوات إلى روسيا القيصرية في العقد الأول من هذا القرن قبل أن يستوطن المهجر الأمريكي، وظل هذا التكوين الغريب عميق الأثر في وعيه فنانياً مبدعاً ومفكراً متأملاً، ولأنه جمع بين الإبداع والنقد مثل

أبناء هذا الجيل كله، فقد مارس الشعر والترجمة والقص والتأمل، ووضع إطاراً نظرياً للأدب محكوماً بتجربته ومزاجه الشخصي وروحه المثالية المتوقدة، كان يرى أن للأدب مقاييس ثابتة تتجاوز الزمان والمكان، ولا تعبت بها أمواج الحياة المتقلبة، وأذواق العالم المتضاربة وأزياء البشر المتبدلة، وهي تمثل ما هو مشترك بين الأفراد والأمم في جميع العصور والأمكنة ويوجزها في أربع حاجات أساسية:

— الحاجة إلى الإفصاح عما ينتابنا من العوامل النفسية والانفعالات والتأثيرات.

— الحاجة إلى الحقيقة.

— الحاجة إلى الجمال المطلق.

— الحاجة إلى الموسيقى.

وهي كلها حاجات روحية ذات جوهر مثالي واحد وتنوعات وتدرجات مختلفة، بيد أنه لا يلبث أن يضيف فكرة جوهرية عن ضرورة استيعاب الأدب لأبعاد الكون، ومهما كان طابع الفكرة ميتافيزيقياً فإنها لا تخلو من صبغة وجودية، فهو يتحدث مثلاً عن موقفه من الشعر وتراتب عناصره قائلاً: "ومتي أيقنت أن فيما أظالعه شعراً ميزته عن سواه — أولاً — باتساع مداه، بعمقه وعلوه وانفراج أرجائه، وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجي، عن دقة تراكيبه وحلاوة رننته وطلاوة ألوانه وما أشبه، وآخر ما أعيره انتباهاً هو الأوزان والقوافي العروضية والقواعد اللغوية". ولعل هذا الترتيب هو ما باعد بين فهم نعيمة وشعراء المهجر ونقاده عامة وفهم مدرسة الديوان لجوهر الشعرية العربية، حيث لم يرحمه العقاد في مقدمته للغربال عن اعتبار المعايير الموضوعية الفنية واللغوية من آخر ما يستحق الانتباه، مع أنه تبنى بقية آرائه الأدبية قائلاً: "لو لم يكتب قلم نعيمة هذه الآراء التي تتمثل للقارئ في هذه الصفحات لوجب أن أكتبها أنا".

نقاد الأدب

تلك هي التسمية التي نرتضيها لأبناء الجيل الوسيط، الذي يدور تاريخ ميلاد معظم أبنائه في نهاية العقد الأول وطوال العقد الثاني من هذا القرن، بحيث يصلون إلى نضجهم الفكري في الخمسينيات والستينيات.

وربما جاز لي أن أعتبر محمد مندور (1907 – 1965) حامل لواء هذا الجيل من نقاد الأدب الذي يشمل أيضاً لويس عوض وحسين مروة وأنور المعداوي ونازك الملائكة وعلي الراعي، ويتضمن عدداً من أبرز الأساتذة المشتغلين بتاريخ الأدب والنقد أمثال شوقي ضيف وسهير القلماوي وعلي جواد الطاهر وإحسان عباس ومحمد يوسف نجم ورشاد رشدي ومحمد النويهي وغنيمي هلال وعبد القادر وتوفيق بكار وشكري عياد وعدد كبير من الأساتذة الآخرين.

وربما تمثلت أبرز مسؤوليات هذا الجيل في فصل النقد واستقلاله عن البحوث والدراسات الأدبية، والدخول به أحياناً في حلبة الصراعات المنهجية التي لم تخل من الحرارة الأيديولوجية اللاهبة، والإصرار على توظيف الأدب غالباً لخدمة حركة المجتمع في تطلعها إلى التنمية العادلة، ومتابعة الإنتاج الحي للمبدعين من الأجيال الجديدة واحتضان بعضهم وتقديمهم للقراء، والوعي العميق بطبيعة تشكيل المدارس والاتجاهات الأدبية في الشرق والغرب مع الإسهام الفعال في تطوير الذائقة الأدبية، وتنمية المجالات المعرفية المتصلة بالأدب والنقد.

وقد تميز هذا الجيل بقدر وافر من مراعاة التخصص، فليس منهم من اشتغل بالتاريخ الإسلامي، باستثناء سيد قطب الذي بدأ ناقداً أدبياً ثم لم يلبث أن وظف طاقاته الفنية لخدمة الدعوة الدينية، وليس فيهم من غلب عليه الطابع الإبداعي واعتد به دون سواه في الشعر أو القص، بل أصبحت مركز اهتمامهم هو الفكر الأدبي نقداً وبحثاً في الدرجة الأولى، كما أن درجة اشتغالهم بالعمل السياسي المباشر قد خفت إلى حد كبير، خاصة بعد قيام ثورة 1952 مصر واحتكار المؤسسة العسكرية للسلطة ومناوراتها المحبطة مع المثقفين، وإذا كان الطابع السائد لدى النقاد المحترفين في الصحافة وأجهزة الإعلام هو التيار اليساري بكل ألوان الطيف فيه، فإن السمة المميزة لمجموعة الأساتذة الجامعيين هي المحافظة على استقلالهم الفكري والبعد عن النشاط التنظيمي الذي كان خطره فادحاً في تلك العقود العسيرة من منتصف القرن، مع محاولاتهم الدائبة والشجيرة في كثير من الأحيان لكسر الطوق الجامعي والتفاعل الخصب مع تيارات الحياة العامة، بقدر ما تتيحه لهم حركة النشر والإعلام ومناورات السلطة المستقطبة من مساحة محدودة، وإذا كانت حرائق السياسة غالباً هي التي صنفت نجوم الثقافة في جيل الأساتذة الرواد فإنها قد حاصرت أبناء هذا



الجيل الثاني من نقاد الأدب فلم يتحولوا إلى قادة يعرف الآخرون عظمتهم وجهدهم الخلاق، مع أنهم من أبرز ثوار القرن العشرين.

وربما كان من الطريف أن نشهد طليعة هذا الجيل، محمد مندور، وهو يراجع في كتابه الأول "في الميزان الجديد" مصير الجيل السابق عليه، ليستنفذ من يده راية النقد قائلاً: "الآن وقد نهض جيلنا يحق لنا - بل يجب علينا - أن نحصى التراث لنرى ماذا عمل من يكبرنا سناً، وماذا بقي علينا أن نعمل، لنسير على بينة كما ساروا، واتقين من أن مراجعة القيم ورسم النهج وتخطيط الأفق هو دائماً من عمل الشباب عند نضجه، إذ سرعان ما تسلمنا الحياة إلى المحافظة، اللهم إلا أن نستثنى العبقريات الفذة التي تظل شابة.. وإني لأتساءل: ما بال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن "محمد"؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر؟ ذلك ما نرجو. ولكن ثمة أمر لا شك فيه، هو أننا قد وصلنا إلى درجة التزمت.. إذن بقي لنا أن نعود إلى التقاط الأسلحة التي ألقاها سابقونا...".

وهكذا لم يعد النشاط النقدي عند مندور عملاً ثانوياً يأتي على هامش الإنتاج الإبداعي في مجرد تعليقات عارضة تحتمي بالتاريخ، بل أصبح يمثل النصف الموازي له والذي لا يقل كفاءته عنه ولا جدارة بلقب الخلق، وهو نشاط له طابعه الإنساني الجمالي قبل أن يتخذ له منظوراً اجتماعياً واضحاً في المرحلة التالية من فكر مندور، حيث أخذ يدعو لما يسميه.

"المنهج الأيديولوجي في النقد" لمناصرة عدة قضايا أدبية وفنية كبيرة، مثل قضية الفن للحياة وقضية الالتزام في الأدب والفن، وتفصيل الأدب والفن القائد على الأدب والفن الصدى، بحيث تصبح وظائف النقد في تقديره كما يلي:

أولاً: تفسير الأعمال الأدبية والفنية تحليله لمساعدة عامة القراء على فهمها وإدراك مراميها القريبة والبعيدة، وفي هذه الوظيفة يعتبر النقد عملية خلاقة قد تضيف إلى العمل الأدبي أو الفني قيمة جديدة ربما لم تخطر للمؤلف على بال، وإن لم تكن مقممة عليه.

ثانياً: تقييم العمل الأدبي والفني في مستوياته المختلفة أي في مضمونه وشكله الفني، ووسائل العلاج كاللغة في الأدب، والتكوين والتلوين وتوزيع الضوء والظلال في التصوير مثلاً، وذلك وفقاً لأصول كل فن مع مراعاة تطور تلك الأصول عبر القرون.

ثالثاً: توجيه الأدباء والفنانين في غير نقض ولا إملاء، ولكن في حدود التبصير بقيم العصر وحاجات البشر وما ينتظرونه من الأدباء والفنانين.

وقد اشتدت المعارك بين مندور ومعارضيه في هذا الاتجاه الأيديولوجي، خاصة بينه وبين رشاد رشدي الذي كان يمثل دعاة الفن للفن في ظاهر الأمر، بينما كان يعمل على ربط عجلة النقد بالسلطة والفن بالحكومة في مقابل النقاد الفرسان المدافعين عن الحرية والإبداع والمسؤولية الثقافية عن توجهات المجتمع. كما كانت هناك معارك بين فصائل الواقعتين أنفسهم باتجاهاتهم المختلفة، كما حدث مع لويس عوض ومحمود أمين العالم وحسين مروة، لكن فريق الأساتذة البعيدين عن الصحافة كانوا يميلون إلى الصمت والتأمل في حركة النقد، وكانوا أشد ميلاً إلى إثراء حقل الدراسات الأدبية والأدب المقارن وتاريخ النظريات الأدبية بالبحوث والكتب المنهجية المطولة، وإعادة طرح قضايا الفكر الأدبي في ضوء المتغيرات العالمية، بينما شغل النقاد الممارسون في الصحافة على وجه العموم بطرق تشكيل الموجات الجديدة من المبدعين، وما يتراءى في أعمالهم من ملامح متميزة تنبئ عن وجه المستقبل الأدبي، كانوا يقومون بدور قضائي تبشيري في الآن ذاته، مما جعلهم يشتبكون في معارك طاحنة مع جيل الأساتذة التي ضاق قليلاً بهم، وفزع من محاولاتهم الدائبة إزاحته عن موقع الصدارة، وربما كان نموذج كتاب محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس عن "الثقافة المصرية" مؤشراً لأقصى نقطة وصل إليها هذا الصراع الأيديولوجي الساخن على قيادة الفكر الأدبي الجديد.

وربما كان النموذج الثاني بعد مندور من ممثلي هذا الجيل المناضل هو حسين مروة الذي ولد في نهاية العقد الأول من القرن واغتيل في نهاية الثمانينات، وأخذ يتجاوب بقوة مع توهج الحركة النقدية في منتصف القرن، متطلعاً إلى أن يعمق الدور اللبناني المبدع في ريادتها وتتميتها، وقد كان شديد الاهتمام بفكرة المنهج، حيث يقول في مقدمة كتابه المهم "دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي" عام 1965 أنه يعنى النقد المنهجي، وهو ما يكون مؤسساً على نظرية نقدية تعتمد أصولاً معينة في فهم الأدب، وفي اكتشاف القيم الجمالية والنفسية والفكرية والاجتماعية في العمل الأدبي. واعتماد هذه الأصول يقتضي من الناقد أن يتجهز كذلك بقدر من المعرفة بشؤون النفس الإنسانية في ضوء هذه المعرفة، بالإضافة إلى الإلمام — ضرورة — بأهم قضايا العصر



التي تساعد معرفتها الناقد على تحديد موقف العمل الأدبي تجاه هذه القضايا
فكرية كانت أم اجتماعية أم سياسية أم فنية.

كما يرى مروة أن أول ما ينبغي أن يكون واضحاً من أمر المنهجية النقدية
أنها لا تستحق هذه الصفة إذا هي قامت على أسس أو مقاييس ثابتة متجمدة،
وإنما تستحقها حين تكون الأسس والمعايير ثابتة من حيث الجوهر، متحركة
متطورة متجددة متنوعة من حيث التطبيق، ومراعاة الخصائص الذاتية القائمة
في كل خلق أدبي بخصوصه، إلى جانب الخصائص العامة المكتسبة من قوانين
الحركة الشاملة المرافقة لكل عمل ذي قيمة فنية ما، وفيما يتعلق بوظيفة النقد
يرى حسين مروة أنها تتمثل في تثقيف القارئ بإعانتته على تفهم الأعمال الأدبية
وكشف المغلق من مضامينها وإدخاله إلى مواطن أسرارها الجمالية، إرهاف
ذوقه وحسّه الجمالي وإغناء وجدانه ووعيه بالقدرة على استبطان التجارب
والأفكار والدلالات الاجتماعية والمواقف التي يفهمها الشاعر أو الكاتب خلال
العمل الفني تجاه قضايا عصره أو وطنه أو مجتمعه، ومعنى ذلك في تقديره هو
أن النقد الموضوعي المنهجي يقوم بوظيفة مزدوجة تؤدي هي بدورها إلى
تطوير حركة النقد وحركة الأدب وحركة الثقافة الوطنية جميعاً. وعلى الرغم
من أنه كان يرفع شعار الواقعية في أوج حرارتها غير أن إصراره على إبراز
العامل الجمالي والخواص النوعية للأعمال الفنية، وعمقه في التحليل التطبيقي
جعله من قادة الفكر الأدبي البارزين في هذا الجيل الوسيط.

وإذا كانت حركة النقد قد امتدت عند منتصف القرن لتشمل عواصم عربية
عديدة أصبحت مراكز جديدة يشتعل فيها لهيب الإبداع وتتعدد المؤسسات
الجامعية والأدبية التي تغذي الفكر، فإنه لم تلبث أن أخذت مشاركة المرأة تبرز
بشكل لافت بعد مضي قرابة نصف قرن على تحررها، وكان الشعر بطبيعة
الحال - والنقد بعد ذلك - من أوضح تجليات هذه المشاركة، وربما كان
نموذج نازك الملائكة بليغ الدلالة في هذا السياق، فقد ولدت عام 1923. مما
يجعل انضمامها المتأخر إلى أبناء هذا الجيل الوسيط مصاحباً للموجة الأخيرة
منه؛ إذ ولد معها في العام ذاته عبد العظيم أنيس ومحمود العالم قبلهما بعام
واحد، وصحبت السياب والبياتي بالمعلمين في بغداد، والتهمت مشاعرهما أولاً
في عشق القمر ورومانسية الليل، لكن عقلها وعيها بيقظة حادة متغيرات الفترة،
فكانت من السابقات إلى إطلاق دعوة الشعر الحر إبداعاً والمنظرات له نقداً،
ويكفي في هذا السياق أن نلتفت إلى بعض تصوراتها الأولى عن وظيفة النقد

لتصبح نموذجاً يرمز لاستحضار الفكر الأدبي بأجنحته العديدة عن هذا الجيل، فهي تنبئه مثلاً في نهاية كتابها عن "قضايا الشعر المعاصر" إلى مزالق النقد الذي تراه فناً ناشئاً في آدابنا العربية المعاصرة حيث تنقصه الأسس التي يرتكز إليها في أحكامها ويعوزه التركيز والرصانة، فالنقد الأدبي في تقديرها "يمثل مرحلة يبدأ فيها الأدب العفوي إحساسه بذاته على إثر نضجه واكتمال نموه وشعوره بفيض من الحيوية الناقدة التي لا بد لها أن تنطلق. وهو في حياة أية جماعة يمثل مرحلة اكتمال ثقافي يمكن أن نسميه وعياً بالذات. ولهذا نجد المؤلف في آداب الأمم أن يوجد الفنانون أولاً ثم النقاد".

لكن الإشكالية التي تقع فيها نازك الملائكة منذ البداية هي هذا الوعي المنقوص بطبيعة العلاقة بالآخر؛ إذ ترى أن النقد العربي "يسير على غير هدى، وسيضيع جهوداً كثيرة حتى يهتدي إلى الأسس التي ستوجهه وتحكمه، حتى تنشأ فيه النظريات والمذاهب والمدارس التي تستند إلى أدبنا المحلي دون ارتكاز إلى نظريات النقد الأوروبية". ويبدو أنها كانت تعبر حينئذ عن لون آخر من الوعي الذاتي الرومانسي المواكب لانطلاقها الشعرية العفوية، فهي ترى النقد فناً دون أن تستحضر المراحل المعرفية التي قطعها، وتحكم عليها بتجربتها الشخصية المحدودة في تأملاتها محاذرة من خطورة الاستيعاب الفكري للتيارات والمذاهب العالمية التي تستشعر غربتها عنها، وكانت أكثر من ذلك تدور في فلك الخطاب الأدبي العراقي البعيد نسبياً عن تيارات النقد العاتية الناضجة التي اجتازتها الثقافة العربية منذ مطلع القرن في العواصم الأخرى.

ولعل هذه الهشاشة في المنطلق هي التي لم تمكن نازك الملائكة من القيام بالدور الطبيعي الصائب المرشحة له، إذ سرعان ما انتكست فكراً وانتقلت إلى شيخوخة نقدية مبكرة.

نقاد الحداثة

ونعني بهم هذا الجيل الثالث من نقاد القرن العشرين، وقد ولد معظمهم حول الأربعينيات، وبدأ عطاؤهم في السبعينيات، حتى بلغوا ذرة نضجهم المنهجي الآن عند ملتقى القرنين، وربما كان معظمهم من نقاد البنيوية وما بعدها، بتجلياتها المختلفة من توليدية وشكلانية وأسلوبية وتفكيك وسيميولوجيا وقراءة وتأويل، بالإضافة إلى عدد من النقاد والأساتذة الذين يقعون على الحواف الواصلة بين الجيلين من ناحية، والمازجة بين الاتجاهات الحداثية وما

قبلها من ناحية أخرى. وأبرز ما يلفت النظر في أبناء هذا الجيل أنهم يتوزعون مكانياً بين مراكز الإنتاج النقد القديمة في مصر والشام والعراق، وبين مراكز أخرى تشكلت ونشطت في هذا النصف الثاني من القرن وأسهمت بقوة في حركة الثقافة العربية من الشمال الأفريقي إلى الخليج العربي والمهاجر الغربية الجديدة، كما يتوزعون زمانياً على ثلاثة عقود مركزة من القصف النقدي لم تشهد لها الحياة العربية نظيراً من قبل كما ولا كيفاً، بحساب عدد المشاركين وكمية الكتب المنشورة ومستواها الرفيع في مختلف أشكال التنظير والتطبيق والترجمة، حتى يمكن رصد عدة موجات متلاحقة ومتداخلة بين أبناء هذا الجيل، لم يدخل أحد منهم في قوائم موسوعات الأعلام لأنهم ما زالوا على قيد الحياة في نهاية القرن. كما يلاحظ من ناحية أخرى أنهم قد استوعبوا بقايا المعطيات الأيدلوجية والمنهجية السابقة عليهم، وطوّروا خطاباً نقدياً عربياً حديثاً، يعتمد على التركيب بين المتجانس من التيارات المختلفة والنمذجة المؤلفة بين المناهج المتعددة، والإنجاز المتميز في صلب الثقافة العربية، وربما كان الأفق العالمي الذي اخترقه من كتب منهم بلغات أوربية، مثل إدوار سعيد وإيهاب حسن ومصطفى صفوان مؤشراً واضحاً على بلوغ الكثيرين منهم لهذا المستوى العالمي لو ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأخرى.

ومن الطريف ملاحظة المفارقة البارزة بين عنف الصدمة التي أحدثوها في قطيعتهم المتفاوتة الدرجات مع تيارات النقد القديم، مع جدة مصطلحاتهم ورهافة أساليبهم النقدية وبين الأثر القوي الذي أحدثوه على الراضين لهم بصفة خاصة، بحيث إذا حللنا خطاب هؤلاء الذين أسرفوا في رفض تيارات الحدائث النقدية وإدانتها بالتبعية، سنجد مفعماً بشظاياها ومصطلحاتها، مع عجزه بطبيعة الحال عن تمثيل سياقها المعرفي وتوظيف تقنياتها التحليلية، وربما كانت أطرف آلية دفاعية استخدمها أنصار التقليد في تبرير هذا العجز هي سرعة الإعلان عن موت هذه المناهج النقدية العالمية، كي يستريحوا من عناء التواصل معها، متجاهلين منطق النقد العربي ذاته - في جميع عصور ازدهاره - من التثاقف الخلاق مع المعرفة العالمية وقدرته الفائقة على الإضافة الحقيقية إليها، لا بالاستبدال والتناقض، وإنما بالتنمية والمزج والتركيب.

وإذا اعتمدنا شهادة الناقد اللغوي الحصيف "عبد السلام المسدي" على "اللائحة الشاملة لهؤلاء البنيويين، والنماذج النصية التي أوردها لهم، وجدنا أنه يسجل في كتابه "قضية البنيوية" خمسة وثلاثين نصاً، تتوزع على ثلاث درجات

من: التأسيس، والدجل، والتجاوز. فإذا قمنا باستخلاص أسماء نقاد الأدب منهم على وجه التحديد مستبعدين المشتغلين بالفلسفة والعلوم اللغوية البحتة لأمكننا أن نورد طبقاً لترتيبية من المؤسسين لهذه التيارات: صلاح فضل وجابر عصفور ونبيلة إبراهيم وكمال أبو ديب وشكري عياد ومحمد بنيس وحسين الواد، ومن المعترضين "في حركة الجدل" نجيب العوفي وحمادي صمود ومحيي الدين صبحي وجمال باروت ومحمد مصطفى بدوي وعز الدين إسماعيل ومحمود طرشونة وعبد الله الغدامي، ومن المتجاوزين جمال شحيد وعبد الفتاح كيليطو ومحمد الهادي الطرابلسي ويمنى العيد ومحمد مفتاح وتوفيق بكار. وربما غابت عن هذه اللائحة بعض الأسماء المهمة من مختلف أرجاء الوطن العربي من أبناء هذا الجيل النقدي مثل محمد برادة ومحمود الربيعي ومحمد عبد المطلب وعبد المنعم تليمة وسيزا قاسم وصبري حافظ وخالدة سعيد وعبد الملك مرتاض ومحمد العمري، ودخل فيها من لا يعتبر ممثلاً للبنىوية أو ما بعدها، مثل شكري عياد ونجيب العوفي ومحيي الدين صبحي ومحمد مصطفى بدوي، كما نلاحظ أن قصر بعض الأسماء على مرحلة التأسيس يعني تجاهل تواصل عطائهم حتى التجاوز مع النباين الشديد بين مواقعهم ومواقفهم، فعز الدين إسماعيل مثلاً مع تقدمه في العمر على أبناء هذا الجيل قد أسهم بقوة في تأسيس هذه التيارات بكتاباته المبكرة ودوره الرائد في مجلة فصول وترجماته المهمة في مجالات القراءة والتأويل، فضلاً عن إنجازه المتميز في نقد الشعر والمسرح، كما أن مصطفى ناصف قد انضم إليه بكتاباته الخلاقة في التأويل.

وإذا حاولنا إيجاز الوظائف النقدية التي استهدفها أبناء هذا الجيل وجدنا من أبرزها إحداث نقلة معرفية حاسمة في النقد الأدبي، باعتماده على الأسس الألسنية من ناحية وتجلياته الشعرية من ناحية أخرى، بحيث أخذ يتقلص الدور الأيدلوجي إلى أقل مستوياته بعد أن كان طاغياً على الخطاب النقدي السابق، والاعتماد على التنظيم المنهجي الدقيق لمقاربة النصوص بطريقة علمية، تجعل القراءة النقدية منبثقة من الكثرة، الأبنية الجزئية المتعاقبة في النصوص الأدبية وصولاً إلى بنيتها الكلية الدالة، وربما كانت أسعد حالات هذا النقد تتجلى عندما يتم تدوير النصوص الأدبية وصولاً للجهاز الاصطلاحي في الكتابة النقدية بطريقة فعالة في لون من الممارسة الإبداعية الموازية للنصوص الأصلية، مما يخفف من غربة القارئ ويلطف من درجة التخصص العالية في التحليل النقدي، ويتخفف من الجداول الإحصائية والرسوم البيانية التي تنبو عن الذوق الأدبي



الشائع، وبالرغم من ذلك فإن علينا أن نعترف بأن شرخاً كبيراً قد أحدثته هذه التيارات في جملتها بين القارئ العادي والنقد الأدبي، بحيث أخذ الناقد الحدائى غالباً يفقد قدرته على التواصل الجمالي الممتع مع متلقيه كلما أمعن في تنمية تقنيات التحليل المرهفة للدقائق النصية، ولم يستطع أن يربط بينها وبين السياقات الخارجية الملموسة بطريقة جذابة ومدهشة، ولا يكاد ينجو من هذا الشرك سوى عدد قليل جداً من نقاد الحدائى الذين ظلوا يمارسون النقد باعتباره رسالة مهما كانت ذات صبغة علمية، إلا أن عليها دائماً أن تثير طاقات الحس الجمالي والإنساني عند القراء.

ولكي لا نخل بالنسق الثلاثي الذي ارتضيناه في رسم هذا المشهد النقدي يتعين علينا أن نختار ثلاثة ممثلين لتوجهات الحدائى العربية، ومع أن المعاصرة حجاب كما كان يقول الأقدمون، وأي اختيار لا بد أن يثير اعتراضات، فإنني أتوقف بطريقة عفوية عند الرفاق كمال أبو ديب وجابر عصفور وعبد السلام المسدي لاستمرارية عطائهم من ناحية وتنوع مذاقهم وأساليبهم في الكتابة النقدية من ناحية ثانية.

ولأن التاريخية الجديدة التي نستلهمها في وضع هذا الإطار تعنى بما تسميه "السجلات الثقافية" لكشف دراما التاريخ الفكري المكتوب، فإن كتاب كمال أبو ديب "جدلية الخفاء والتجلي" الذي صدر عام 1979 كان باكورة الدراسات التطبيقية قد أعقب كتابي "نظرية البنائية في النقد الأدبي" الذي صدر عام 1978، وصب فيه أبو ديب عصارة لغته الشعرية وتدفقه التحليلي ومزجه الممتع بين التيارات المتناغمة، لم يلبث أن طور مشروعه النقدي التحليلي لإضاءة الشعر العربي القديم والمعاصر بمنهج متفرد يحمل طابعه الشخصي وتركيبته الخاصة في عدد من الأعمال اللاحقة، ومع عزوفه الواضح عن التوثيق المنهجي النظري وولعه الشديد بإنتاج خطاب يطرح شبكته الذهبية البليغة على النصوص الإبداعية مباشرة فإنه قد أفاد بطريقة خلاقة من حصاد التيارات البنيوية والتفكيكية لإقامة جهاز قارئ متميز وديناميكي، وقد كان منذ البداية واعياً بأبعاد هذا المشروع الجنيني وحريصاً على تنميته، يقول في بيانه الأول: "ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، وبحكم ذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقة بالعالم وموقعه منه وبإزائه. في اللغة: لا تغير البنيوية اللغة، وفي المجتمع: لا تغير البنيوية المجتمع، وفي الشعر: لا تغير البنيوية الشعر، لكنها بصرامتها وإصرارها على الاكتناه

المتعمق، والإدراك المتعدد في الأبعاد، والحرص على المكونات الفعلية للشيء،
والعلاقات التي تنشأ بين هذه المكونات، تغيير الفكر المعايين للغة والمجتمع
والشعر وتحوله إلى فكر متسائل، قلق متوثب، مكنته منقّص، فكر جدلي شمولي
في رهافة الفكر الخالق وعلى مستواه من اكتمال التصور والإبداع".

ومع أن هذا التصور يخلط البنيوية التي كانت قد انبثقت في الثقافة العربية
بأصولها المنهجية ومحدداتها المعرفية ببقايا الفكر الجدلي لماركس الذي كان
سائداً من قبل، فإن لهجة التبشير والثورة واليقين القاطع بأهمية الكشف الجديد
تضفي حرارة مشعة على هذا الخطاب المتوهج. ويغفر له نزقه الطموح
عندما يعلن بعد ذلك أنه سيتعامل مع بنية القصيدة - في المنظور الذي يحاول
تتميمته - بحيث لا تختلف جوهرياً عن بنية مشروع اقتصادي يراد تنفيذه، أو
مشروع وحدة سياسية بين قطرين عربيين أو مشروع قاموس لغوي، ومن
حسن حظ النقد العربي أن الفارق كان شاسعاً بين ما أعلنه كمال أديب بلهجة
الزعماء، وما أنجزه بعد ذلك بحس العلماء من أعمال فائقة أضاءت شعيرة
النصوص الأدبية العربية بروح نقدي ومعرفي عميق.

أما جابر عصفور فقد انتقل من الماركسية إلى البنيوية بحيوية بالغة، فاهتم
أولاً بالجانب التوليدي عند جولدمان ووجد فيه حلقة الوصل الوثيقة بين
التيارين، ثم اشترك مع عز الدين إسماعيل وكاتب هذه السطور في إطلاق مجلة
فصول - رافعة لواء الحداثة النقدية منذ 1980 في أدق المراحل الثقافية
المفصلية - ولم يلبث أن وجد في الترجمة أولاً وفي الكتابة النظرية ثانياً سبيلاً
إلى التعمق في المناحي العديدة للفكر البنيوي.

وكان جهده الدؤوب في تحقيقه الأفكار وصياغة المصطلحات وتبيينه
المنطلقات أساسياً في هذه المرحلة، لكنه لم يلبث أن انطلق بطاقاته التنظيرية
والتطبيقية كي يستوعب مراحل ما بعد البنيوية، ويستل منها ذكاء التفكير ودهاء
القراءة وقوة التأويل ليضيفها إلى جهازه المعرفي المركب المنتج في كتاباته
اللاحقة، وعلل مقدمته لكتاب "عصر البنيوية" المنشور عام 1985 أن تكون
مؤشراً على هذا الموقف، إذا يقول فيها: "لا شك في أن البنيوية قد فرضت
نفسها على الفكر العربي المعاصر بطريقة أو بأخرى في السنوات الأخيرة،
وأصبح لها خصومها وأنظارها وآثارها اللافتة في مجال العلوم الإنسانية
المختلفة، ولكن رغم الحماس الذي يصل بين أنصار البنيوية وخصومها في
الوطن العربي، ورغم كثرة ما كتب أو ترجم عنها، بل رغم تحول البنيوية

نفسها إلى موضة تذكر بما كانت عليه الوجودية في الخمسينيات، فليس هناك كتاب شامل يعرض للبنىوية منذ انطلاقتها في منتصف الخمسينيات في فرنسا، إلى أفولها في موطنها نفسه مع مطالع السبعينيات وقبل أن يصبح موضة بين متقفيها". ثم يأخذ في تعداد المستويات البنوية من النموذج التصوري إلى الحركة الفكرية والاجتماعية، منتهياً إلى أنها قد أدت إلى إنتاج وعي مستقبل يجعل منها نوعاً من الأيديولوجيا. ومع أن جابر عصفور كان حريصاً دائماً بهذه الطريقة على التباعد النسبي، وإنكار تماهيه التام مع تيارات البنوية وما بعدها لغلبة الحس التاريخي عليه وقوة الموقف النقدي له فإنه لم ير فيها سوى أيديولوجيا جديدة تزاحم القديمة، لكن ذلك لم يحل بينه وبين الاستثمار الخلاق لكل معطياتها والتجاوز الدائم لها، لأن استراتيجية في الكتابة النقدية ظلت مرتبطة دائماً بوظيفة هامة في اتخاذ الفكر الأدبي منطلقاً لتحقيق رسالة التقدم والتنوير وتحديث العقل والمجتمع، وهي الوظيفة التي لا تتسق مع طبيعة الشكلانية وتنحو إلى تفجيرها واختراق عالمها النصي المحدود.

ولعل النموذج الثالث والأخير من نقاد الحدائة "عبد السلام المسدي" أن يقدم الوضعية الجديدة للباحث اللغوي الذي يحرك من منطلقاته المعرفية مياه النقد الأدبي، فقد كان طموحه عند إصدار كتابه الرائد "الأسلوبية والأسلوب" أن يجعل هذا التيار بديلاً لغوياً للنقد الأدبي، لكنه لم يلبث أن أدرك اقتصار الأسلوبية على تمثيل إحدى التجليات النقدية، فأخذ يراوح بين البحوث الألسنية المعمقة والدراسات النقدية التقنية التطبيقية، وقام بدور المؤرخ البيبليوجرافي لما أنجزته البنوية وما بعدها في حقول المعرفة الألسنية والأدبية، ملاحظاً أن أول ما حصل في هذا المضمار هو أن البنوية قد تجرأت على النص، فأزاحت ما كان يحيط بالأدب من هالة قداسية كثيراً ما كانت تقوم عائقاً دون الرؤية الموضوعية المتأنية، بل يمكن أن نتتبع مدارج تناول النص لنرى أن سلم التعامل النقدي مع النص ينطلق مع الوصف، وهو مستوى الحوار مع اللغة في بنيتها التركيبية، ويمر إلى التفسير وفيه يقع البحث على القرائن المتحكمة في نسيج اللغة عند تحولها إلى حدث أسلوبية، ثم يصل إلى ترسم الأبعاد الدلالية في مسالك متنوعة من احتمالات الفهم وفرضيات التأويل، وكل هذه المراتب إنما تمثل ما قد نصطلح عليه بالاستنطاق النقدي للنص الأدبي".

وبمقدار ما تكتفت الدراسات الأسلوبية في مصر وتونس أوغل تيار البلاغة المحدث في المغرب العربي وأسفر عن تفجير طاقة هائلة في التنظير

والتأويل والإمعان في إعادة قراءة التراث، ولعبت المراكز الجديدة في دول الخليج العربي أدواراً خطيرة في تنمية الفكر النقدي الحدائث وتوظيفه لتخليق خطاب أدبي جديد يتذرع بالنقد ليجر مركبة الحياة، ويقوم بتحليل الأبنية الإبداعية ليطور الأبنية الثقافية ويكسبها مرونة جديدة تسمح لها باستشراق أفق مستقبلي واعد.

هل يحق لنا نتيجة لكل ذلك أن نعتبر هذا القرن الذي نودعه القرن الذهبي الثاني للنقد العربي؟.

الفهرس

7	تمهيد مفهوم المنهج
16	منظومة المناهج التاريخية الفصل الأول: المنهج التاريخي
27	الفصل الثاني المنهج الاجتماعي
38	الفصل الثالث: المنهج النفسي الأنثربولوجي
47	منظومة المناهج الحدائية: الفصل الرابع: المنهج البنيوي
60	الفصل الخامس: المنهج الأسلوبي
66	الفصل السادس: المنهج السيميولوجي
73	الفصل السابع: التفكيكية
80	الفصل الثامن: نظريات التلقي والقراءة والتأويل
88	الفصل التاسع: علم النص
95	القرن الذهبي للنقد العربي
105	نقاد الحدائة
113	الفهرس

صدر للمؤلف

- 1 – من الرومانث الإسباني: دراسة ونماذج.
- 2 – منهج الواقعية في الإبداع الأدبي.
- 3 – نظرية البنائية في النقد الأدبي.
- 4 – تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي.
- 5 – علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته.
- 6 – إنتاج الدلالة الأدبية.
- 7 – ملحمة المغازي الموريسكية.
- 8 – شفرات النص، بحوث سيميولوجية.
- 9 – ظواهر المسرح الإسباني.
- 10 – أساليب السرد في الرواية العربية.
- 11 – بلاغة الخطاب وعلم النص.
- 12 – أساليب الشعرية المعاصرة.
- 13 – أشكال التخيل، من فئات الحياة والأدب.
- 14 – مناهج النقد المعاصر.
- 15 – قراءة الصورة وصور القراء.
- 16 – عين النقد على الرواية المعاصرة.
- 17 – نبرات الخطاب الشعري.
- 18 – تكوينات نقدية ضد موت المؤلف.
- 19 – شعرية السرد.
- 20 – تحولات الشعرية العربية.
- 21 – الإبداع شراكة حضارية.
- 22 – وردة البحر وحرية الخيال الأنثوي.
- 23 – حواريات في الفكر الأدبي.



24 - جماليات الحرية في الشعر.

25 - لذة التجريب الروائي.

ترجم من المسرح الإسباني:

26 - الحياة حلم، لكالديرون دي لباركا.

27 - نجمة أشيلية، تأليف لوبي دي فيجا.

28 - القصة المزدوجة للدكتور بالمي، تأليف بويرو بايخو.

29 - حلم العقل ودون كيشوت، تأليف بويرو بايخو.

30 - وصول الآلهة، تأليف بويرو بايخو.

أشرف وشارك في عدد من المؤلفات الجماعية.

نشر عدداً كبيراً من البحوث والمقالات في معظم الدوريات والمجلات النقدية في مصر والعالم العربي.



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

في النقد الأدبي: دراسة/ صلاح فضل. - دمشق: اتحاد
الكتاب العرب، 2007. - 114 ص؛ 25 سم.

1- 801 ف ض ل ف 2- العنوان 3- فضل

ع- 2007/2/290

مكتبة الأسد





اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق





فانها
مكتبة
الكلية
الدراسية



د. صلاح فضل

- ناقد أدبي مصري من أبرز النقاد العرب
- أستاذ جامعي
- أشرف وشارك في عدد من المؤلفات الجماعية.
- نشر عدداً كبيراً من البحوث والمقالات في معظم الدوريات والمجلات النقدية في مصر والعالم العربي.

مؤلفاته:

- 1 - من الرومانث الإسباني: دراسة ونماذج.
- 2 - منهج الواقعية في الإبداع الأدبي.
- 3 - نظرية البنائية في النقد الأدبي.
- 4 - تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتى.
- 5 - علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته.
- 6 - إنتاج الدلالة الأدبية.
- 7 - ملحمة المغازي الموريسكية.
- 8 - شفرات النص، بحوث سيميولوجية.
- 9 - ظواهر المسرح الإسباني.
- 10 - أساليب السرد في الرواية العربية.
- 11 - بلاغة الخطاب وعلم النص.
- 12 - أساليب الشعرية المعاصرة.
- 13 - أشكال التخيل، من فتات الحياة والأدب.
- 14 - مناهج النقد المعاصر.
- 15 - قراءة الصورة وصور القراء.
- 16 - عين النقد على الرواية المعاصرة.
- 17 - نبرات الخطاب الشعري.
- 18 - تكوينات نقدية ضد موت المؤلف.
- 19 - شعرية السرد.
- 20 - تحولات الشعرية العربية.
- 21 - الإبداع شراكة حضارية.
- 22 - وردة البحر وحرية الخيال الأنثوي.
- 23 - حواريات في الفكر الأدبي.
- 24 - جماليات الحرية في الشعر.
- 25 - لذة التجريب الروائي.
- 26 - ترجم من المسرح الإسباني:
- 26 - الحياة حلم، لكالديرون دي لباركا.
- 27 - نجمة أشبيلية، تأليف لوبي دي فيجا.
- 28 - القصة المزدوجة للدكتور بالمي، تأليف بويرو بايخو.
- 29 - حلم العقل ودون كيشوت، تأليف بويرو بايخو.
- 30 - وصول الآلهة، تأليف بويرو بايخو.